نظرة عامّة على عهد السلطان محمد الفاتح

عندما اعتلى السلطان محمد الفاتح العرش عام (١٤٥١م)، استطاع التغلّب على الأزمة التي تسبّب بها عهد الركود، وتمكّنت الدولة من العودة تقريبًا إلى الحدود التي كانت عليها قبل حرب "أنقره"، وكانت الدولة العثمانيّة تمتدّ في تلك الحقبة من نهر الدانوب غربًا وحتى نهر الفرات شرقًا، وإذا حسبنا مساحة الدولة العثمانيّة عقب فتح إسطنبول وأضفنا إليها الدول التابعة للعثمانيين نجدها قد بلغت حوالي تسعمائة وأربعة وستين ألف (٩٦٤٠٠٠) كيلومتر مربع، وكان نصف هذه الأراضي في الأناضول، بينما كان النصف الآخر في الروملي، وقد بلغت مساحة الدولة العثمانيّة بما في ذلك الدول التابعة عند وفاة السلطان الفاتح إلى مليونين ومائتين وأربعة عشر ألف (٢٢١٤٠٠٠) كيلومتر مربع، ولقد أصبحت الدولة العثمانية كأنها دولة أوروبّيّةٌ بسبب أن ثلاثة أرباع أراضيها كانت تقع في البلقان، وقد تغيّرت البنية الديموغرافية للدولة العثمانية بعد فتح "صربيا" و"شبه جزيرة بيلوبونيز" و"أَفْلَاق" و"البُوسْنَة"

و"الهَرْسَكْ" و"ألبانيا" و"بُوغْدَانْ"، الأمر الذي أدّى إلى ارتفاع أعداد السكّان من غير المسلمين مقارنةً بالمسلمين.

رحّبت الشعوب المحلّيّة والطبقات القرويّة بالنظام الجديد الذي أسّسه العثمانيّون في المنطقة عقب الفتوحات التي حقّقوها في الروملي، وضُمّت الأراضي التي كان يمتلكها الإقطاعيّون والنبلاء في البلاد المفتوحة إلى أملاك الدولة العثمانيّة، كما أُلغيت الضرائب الباهظة والخدمات الجبريّة التي كانت مفروضةً على الفلّاحين، وقد ساهم إلغاء الخدمات التعسُّفية وتأسيس نظام ضريبيّ عادلٍ في تسهيل تبنّي شعوب البلقان السيادة العثمانية ونظرهم بتعاطفٍ إزاء دولتهم الجديدة، وفي الوقت نفسه اتّحد نصارى البلقان من أتباع المذهب الأرثوذكسي من جديد بواسطة بطريركيّة الروم الأرثوذكس التي تمّ إحياؤها عقب فتح إسطنبول، ودخلوا تحت رعاية الدولة العثمانية التي أضحت بمثابة حامية النصارى الأرثوذكسيّون في البلقان من الناحيتين السياسية والدينية، وبهذه الطريقة فقد نجا الأرثوذكسي من ضغط الكاثوليك واستغلال الإيطاليّين، الأمر الذي تمخّض عنه ارتقاء قدراتهم الاقتصاديّة، وعليه، فإن السلطان الفاتح تمكّن من فصل الأرثوذكس عن الكاثوليك، وبذلك يكون قد حال دون توحُّد العالم النصرانيّ الصليبيّ ضدّ العثمانيّين.

ويستوقفنا هنا ما ذكره "دانيال جوفمان (*Danial Gcյfman*)" حول هذا الموضوع:

> "وكانت الأنظمةُ التي قضى عليها العثمانيّون قد فقدت مشروعيّتها كما فقدت احترامها لدى الناس، ولقد قامت الحملة

الصليبيـة الرابعة عام (١٢٠٤م) بتنصيـب "إداريين كاثوليك"، وقد عمد هؤلاء الإداريون الكاثوليك إلى التشدّد والتعصّب للكاثوليك على حسـاب الجور والظلم للطائفة الأرثوذكسـية، وعمدوا أيضًا إلـى فـرض ضرائب ثقيلةٍ ونشْـرِ الخدمـات التعسّـفية المكروهة، ولـم يتورّعوا عن اسـتغلال رعاياهم، كما كان الأباطرة البيزنطيّون وسطاء في هذه الحملات الاستعمارية وقد يسّر الغضب الذي كان في صـدور النصارى الـروم الأرذوكس إزاء الأنظمـة الكاثوليكية مهمّـة العثمانيّيـن الذيـن حصـل غيـر المسـلمين تحـت حكمهم علـى الثـروات وأصبحوا أغنياء، فلم يرجِّـح العثمانيّون ضيق أفق التفكير الذي كان مهيمنًا على العالَمَين الكاثوليكي والأرثوذكسي، وعوضًا عن ذلك وضعوا أُسُسًا مجتمعيّةً جديدةً يستطيـع التعايشَ معها غيرُ المسلم بحرّيّة وكرامة تامّة، واستفادوا أيضًا من العادات السـائدة في آسـيا الوسـطى من تسـامحٍ نسـبيٍّ وتشـاركٍ وتعدّدٍ، ولهذا السـبب جذب هذا الخيار انتباه الشـعوب المطحونة للدول النصرانيّة الإقصائيّة".

وإذا حللنـا المخطوطـات مـن القرن الخامس عشـر، نجـد أن الرأي العام الأرثوذكسـي في تلك الحقبة اعتبر السلطان الفاتح حاكمًا لهم وهو الشخص الذي يستحقّ عرش أباطرة بيزنطة:

- "لقد كُتب هذا النص في عهد أميرنا المبجّل محمد بك".
- "لقـد كُتب هـذا النص في السـنة الثانية والعشـرين لحكم القيصر المسلم العظيم محمد بك، وهو نفس العام الذي بسط فيه الأتراك نفوذهم على مدينة أشقودرة".
- "ولقـد كُتـب هذا النص فـي عهد القيصر المسـلم حاكمنا محمد بك الذي خاض معركةً ضدّ أُوزُونْ حسن هذه السنة، حيث

لم يسمح حاكمنا لعدوّه بدخول الأراضي الخاضعة لسيطرته".

ويقول المؤرخ الروماني الشهير "نيكولا زورجا" نقلًا عن جنديٍّ إنكشاريٍّ ذي أصلٍ صربيٍّ عملَ بالجيش العثماني لسنواتٍ طويلةٍ ما يلي:

"كان الإداريون العثمانيّون يحكمون بالعدل على مواطنيهم وسكّان الدول الملحقة بدولتهم دون التفرقة بينهم على أسسٍ دينيّةٍ ويتجوّل الموظّفون العثمانيّون بجميع أنحاء البلد أربع مرّات في العام لتفقّد أحوال الرعيّة، ولم ينتزِع العثمانيون في البلاد التي فتحوها أراضي الفلاحين أو حوانيت التجّار أو كنائس الرهبان من بين أيديهم، وأما القضاة فكانوا يقضون بين المسلمين وفق قواعد الإسلام في الخلافات التي تنشب بينهم، ويستطيع من يريد أن يتقدّم بطلبٍ إلى العمداء والرهبان وحتى المطارنة من أجل إصدار القرار بشأنه، وكان من تُسوِّل له نفسه استغلال الفقراء يلقى أقسى العقوبات، وربما تصبح حياة الإنسان في خطرٍ إذا تجرّأ حتى على سرقة دجاجةٍ من فلّاح".

وفيما يلي نذكر التقييم العام للمؤرخ "نيكولا يورجا(*Nicolae Jorga*)" للسلطان محمد الفاتح وعهده:

"... كان السلام يسود الإمبراطوريّة الجديدة، كما كان الحال في عهود روما القديمة، وعادت حقبة سلام روما (*Pax Roman*) من جديد، وكان الجميع سعيدًا بهذا، وإذا ما نظرنا بعين الاعتبار إلى التقاليد الإقطاعيّةِ البولندية والمجرية التي أجبرت الفلاحين وسائر السكان على تحمل الكثير من المعاناة رغم ما وُعدوا به من امتيازات، والقلاقل التي تسبّب بها النظام المُتّبع في الدول

السلافية[١٩] الصغيرة، والضغوط الشديدة التي كان يمارسها الإداريون البيزنطيون الذين كانوا يستغلّون رعاياهم باستمرارٍ، والفوضى التي سيطرت على ألمانيا التي يحكمها الإمبراطور فريدريك الذي كان يفكّر فقط في مصلحته الشخصيّة، ثم قارَنَّا ذلك بما كانت عليه الدول تحت الحكم العثمانيّ فسنجد أن منظومةَ هذه الدول كانت تنعمُ بالأمن والأمان والاستقرار؛ فما كان أحدٌ يخشى على نفسه بسبب دِينه وعرقه، إذًا لقد كانت العادات والتقاليد مصونةً لا يستطيع أحدٌ أن يمسّها بسوءٍ".

إذا صنّفنا الحملات التي خاضها السلطان محمد الفاتح خارج البلقان وفق أهدافِها العسكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة، فيمكننا أن نقول:

فمن أجل تحقيق الوحدةِ السياسية في الأناضول: فُتحت "أماسرا" و"سينوب" و"طرابزون"، وتمّت السيطرة على دولة "قَرَمَان"، ودُحرَ جيش "آقْ قُيُونْلُو" في موقعة "أُوتْلُوكْبَلِي" بعدما ظهروا على الساحة كتهديدٍ كبيرٍ للدولة العثمانية.

من أجل إحكام السيطرة على منطقة البحر الأسود ومراقبة طرق التجارة في تلك المنطقة: فُتحت سواحل البحر الأسود الجنوبية مثل "أماسرا" و"سينوب" و"طرابزون"، وتمّت السيطرة على القرم شمالي البحر الأسود، فيما دخلت "بوغدان" -الواقعة غربي البحر الأسود- تحت السيطرة العثمانيّة.

(١٩) السلاف أو الصَقالبة: هم مجموعة عرقية لغوية يتحدّثون باللغات السلافية. يستقرّون أساسًا في أوروبا الوسطى، وأوروبا الشرقية، ودول البلقان وقاموا في العصور الأخيرة باستيطان آسيا الشمالية، وينقسم السلاف إلى سلاف شرقيين (الروس والأوكرانيين والبيلاروسيين)، سلاف غربيين (البولنديين والسلوفاكيين والتشيكيين) وسلاف جنوبيين (السلوفينيين والكروات والصرب والمقدونيين والبوسنيين والبلغار).

وأما في سبيل السيطرة على بحر "إيجه" والبحر الأبيض؛ فتحت جزر بحر "إيجَه" والجزر الأيونية الواقعة في البحر الأدرياتيكي، وقام العثمانيّون بحملةٍ صوب إيطاليا، ولقد زادت قوّة الأسطول العثمانيّ الذي كان ضعيفًا في السابق، بشكلٍ كبيرٍ بفضل الغزوات البحريّة التي خرجها في البحرين الأسود والأدرياتيكي وبحر إيجَه، الأمر الذي أكسب البحريّةَ العثمانيّة مكانةً كبيرةً في الساحة البحريّة.

إن السلطان محمد الفاتح هو المؤسّس الحقيقي للأسطول العثماني، ففي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تمتلك نحو ثلاثين قادسًا (سفينة قَادِرْغَا) عام (١٤٥١م) عند تولّي السلطان العرش، وصل هذا العدد إلى مائتين وخمسين سفينة حربية وحوالي خمسمائة سفينة شحن عام (١٤٨١م) عند وفاته، ويصف المؤرّخ الألماني "فرانز بابينجر" هذا التطّور بـ"المدهش"، موضحًا أن الأسطول العثمانيّ صار يتفوّق على أساطيل أوروبّا.

ولقد أحرزت تكنولوجيا صناعة المدافع العثمانيّة تطوّرًا فائقًا في عهد السلطان الفاتح، وكان انتقال نظام المدفعيّة الحديثة من العثمانيّين إلى أوروبا إيذانًا بنهاية النظام الإقطاعيّ الذي استمرّ لألفِ عام، وكانت أوروبا قد بدأت تستخدمُ المدافع البدائيّة في حروبها اعتبارًا من القرن الرابع عشر، وعلى سبيل المثال فقد استخدم الإنجليز هذا النوع من المدافع ضدّ الفرنسيّين في معركة "كيرسي" في السادس والعشرين من أغسطس/آب عام (١٣٤٦م) في إطار حرب "المائة عام" (١٣٣٧-١٤٥٣م)، وأما العثمانيون فقد جرّبوا أوّل مدفع لهم في حرب "كوسوفو الأولى" عام (١٣٨٩م)، وكان الهدف الرئيس لاستخدام هذا النوع من

المدافع البدائية ينصبُّ بشكلٍ أساسيّ على بثّ الرعب بين صفوف العدوّ وإخافة حيواناتهم، غير أن السلطان الفاتح استطاع هدم أسوار القسطنطينية بفضل المدافع التي كلّف جيشَه بصناعتها، واستخدمها بهدفِ القضاء على جيوش العدوّ في ميادين القتال، وكان المدفع الذي أُطلق عليه "شاهي" أو الملكي، والذي استخدمه في حصار القسطنطينية، يمتلك تأثيرًا قويًّا لم يره أحدٌ من قبل، وكان نتيجةً لعملٍ هندسيّ دقيقٍ ومتميّز للغاية، كما صنع العثمانيون في أثناء الحصار أوّل مدفع "هاون" في تاريخ البشرية، هذا إضافةً إلى أن العثمانيّين صنعوا مدافع متفجّرةً لاستخدامها في ميادين المعارك، وقد نُقلت مستلزمات الحصار إلى منطقة الحصار في الغزوات التي خرج فيها الجيش لحصار قلاع ألبانيا الحصينة، ومن ثم صُبّت المدافع بشكلٍ سريعٍ أمام القلعة، وتُعتبر هذه الواقعة التي رواها المؤرخ "كريتوفولوس" من أكثر النماذج -التي توضّح المستوى الذي وصلته صناعة المدافع لدى العثمانيين- إثارةً.

لقد حوّل العثمانيون المِدفع إلى وسيلةٍ مؤثّرةٍ للغاية في الحصار والحرب، وأثبتوا أنه من الممكن تدميرُ الأسوار والقلاع والحصون العظيمةِ، وعقب هذه التطورات، لم يستغرق خضوع ملوك أوروبا للإقطاعيين وإلحاق أراضيهم كافة بهم وقتًا طويلًا، وفي الوقت الذي قويت فيه الممالك والملكيات المركزية اعتبارًا من القرن السادس عشر، فإن الإقطاعيّين هُزموا أمام الملوك وفقدوا أراضيهم، ولقد تغيّرت الأنظمة السياسيّة لدول أوروبا، وحلّ نظام الدولة المركزيّة محلّ النظام الإقطاعي.

كان من بين الأحداث التي غيرت مجرى التاريخ العالميّ ذلك الدور الكبير الذي لعبه العثمانيّون في بدء الاكتشافات الجغرافية، ذلك

أن العثمانيّين أصبحوا أصحابَ الكلمة العليا في الإشراف على طرق الحرير والتوابل بعدما وضعوا إسطنبول والبحر الأسود تحت سيطرتهم، وأصبحت الدول الأوروبّية تخضعُ إلى الأتراك من الناحية التجارية، وبعدما صار ملوك أوروبا محاصَرين تمامًا عقب الفتوحات التي قام بها الأسطول العثماني في بحر "إيجَه" والبحر الأدرياتيكي، بحثوا عن طرقٍ تجاريّةٍ جديدةٍ بهدف الوصول بطريقةٍ مباشرةٍ إلى الهند والشرق الأقصى، وهو ما مهّد الأرضيّة لبدء الاكتشافات الجغرافية.

كان السلطان محمد الفاتح أحدَ أعظم رجال الدولة في التاريخ، وقد أخذ السلطان على عاتقه طيلة حياته مهمّة تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطوريّة كبيرة، وبادر إلى تحقيق الفتوحات من أجل الوصول إلى هذه الغاية، كما قام بدراسات تنظيميّة جذريّةٍ، ويقول المؤرخ التركي الشهير "خليل إينالجيك" ما يلي:

> ”لقد جمع الفاتح في شخصيّته ميّزتَين مهمّتَين يحملهما مؤسّسو الإمبراطوريات: إحداهما كونه زعيمًا عظيمًا يسعى من أجل السيطرة على العالم، والثانية كونه رجلًا مثقفًا صاحب رؤية واسعةٍ، ولقد سيطرت على جميع أفعال هذا السلطان العظيم فكرةُ تحويل دولته إلى أقوى إمبراطوريات العالم وأكثرها تفوقًا في المجالات كافة“.

وبقدر ما كان السلطان الفاتح قائدًا عسكريًّا من الطراز الرفيع، كان دبلوماسيًّا ماهرًا، وقد اضطرّ في بعض الأوقات أن يدخل في حربٍ ضدّ أربع أو خمس دول في آسيا وأوروبا في آنٍ واحدٍ، ليجد نفسه محاصرًا من الشرق والغرب من قِبل أعدائه، واستطاع السلطان الوصول إلى مراده

حتـى في هـذه الفترات من خلال التنـازل لأعدائه عن بعـض الامتيازات أحيانًا، وأحيانًا أخرى بمراوغتهم أو الإيقاع بينهم.

استطاع عثمان بك تأسيس إمارةٍ من بطن قبلية "قايي"، ثم حوّل أُورْخَانْ بـك ومـراد بك هذه الإمارة إلى دولةٍ بفضل أعمال التنظيم التي قاموا بها، وأما السـلطان محمد الفاتح فقـد حوّل الدولة العثمانيّة إلـى إمبراطوريّةٍ، وأراد أن يجعـل إسـطنبول مركـزًا لمنطقـة البحر الأبيض المتوسـط، وقد أسّـس هذا السـلطان متعدّدُ المهـارات بنيةً مركزيّةً قويةً فـي إدارة الدولة، ونجـح فـي أن يجعل مـن الأناضـول والروملي والبلقان والبحر الأسـود وبحر "إِيجَه" دولةً واحدةً مركزها إسطنبول.

وقـد بـذل السـلطان محمـد الفاتح جهـودًا جبّـارةً من أجل تأسـيس إمبراطوريـةٍ مركزيّـةٍ حديثةٍ، وبادر فـي البداية إلى إبعـاد العائلات التركية الأرسـتقراطية -التـي تحـدّ مـن سـلطة الحاكـم- مـن المناصـب المهمّة بالدولة، وأخضـع رجال الدولة القادمين من طبقةِ "الدَّوْشِـرْمَه"(٢٠) -الذين عينهم مكانهم- لطاعته المطلقة، ولقد وُجّهت ضربةٌ قاصمةٌ للطبقة النبيلة التركيـة فـي تلك الحقبة، وبدأت سـيطرة طبقة "الدوشـرمه" على مناصب الدولة، هذا فضلًا عن أنه عقب وفاة السـلطان الفاتح دعمت "الدوشرمه" الأميـر بَايَزِيـدْ للوصول إلى العرش، بينما دعم التركمان الأمير "جَمْ"، غير أن "الدوشـرمه" انتصروا في هذا الصراع، وفي بداية سـلطنته قام السلطان

(٢٠) "الدوشرمه (*Devşirme*)": مصطلح عثماني أُطلق على أولاد النصارى الذين تمّ جلبهم للالتحاق بالسلك العسكري بشكلٍ خاصّ، وتتراوح أعمارهم مابين ثمانية أعوام إلى خمسة عشر عامًا وتتوفّر فيهم اللياقة البدنية، وكان يتمّ تطهيرهم ونطقهم بالشهادة ليدخلوا في الإسلام. (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ١١٥).

بعـزل الصـدر الأعظـم "جَانْدَرْلِـي خليل باشـا" الـذي كان يتزعّـم الطبقة الأرسـتقراطية التركية، وعمل في السـنوات اللاحقة مـع الصدور العظام المنحدرين من طبقة "الدوشرمه".

كان "محمـود باشـا"، -ذا الأب الرومـي والأم الصربيـة-، أنجـح الشـخصيات التي تولّت منصب الصدر الأعظم في عهد السـلطان محمد الفاتـح، وكان "محمود باشـا" قد أُسـر من قبـل قوّات المغاويـر العثمانيّة بالقـرب مـن مدينـة "سـمنديرا"، ثم بِيـع لـ"محمود أَغَـا" فـي "أَدِرْنَه" عام (١٤٢٧م)، وسـرعان مـا قُدّم للسـلطان مـراد الثاني بعدمـا لوحظ ذكاؤه، وبعد أن تلقّى العلم لفترةٍ في مدرسةِ "أندرون" في القصر، دخل في خدمة الأميـر محمد، وكان شـقيق "محمود باشـا"، المنحدِر مـن أعرق عائلات صربيـا، يدعـى "ميشـيل أنجيلوفيتش"، حيـث كان من أبرز رجـال الدولة فـي صربيا، وقـد تولّى هذا الأخيرُ زعامة اللوبي التركـيّ الذي قدّم الدعم لفتح صربيا على أيدي العثمانيّين، وهو ابن خالة الفيلسوف "جيرويجوس أميروتـزس" الـذي كان حاجـب إمبرطـور الـروم فـي طرابـزون "ديفيـد كومنينوس"، ولقد حقّق "محمود باشا" إنجازات ناجحةً للغاية خلال فترة تولّيه منصب الصدراة العظمى للمرّة الأولى بين عامي (١٤٤٥-١٤٦٧م)، واختيرَ للمرّة الثانية للمنصب عام (١٤٧٢م)، ولكنه عُزل من منصبه وأُعدِم عـام (١٤٧٤م) بسـبب تحريض بعض رجـال الدولة السـلطان عليه، وقد أفضى إعدامه إلى انتشار حالةٍ من الحزن الشديد بين أرباب العلم والفنّ، حيـث كان يتمتّـع بحبٍّ كبيرٍ بين الشـعب حتى أُطلـق عليه لقب "الوليّ"، وتصفه المصادر التاريخية الغربيّة لتلك الحقبة بأنه "أشـجـع رجال القصر العثماني وأغزرهم علمًا"، وتمدحه كثيرًا، وتشـير تلك المصادر أن القصر

كان يأخذ توصيات "محمود باشا" بعين الاعتبار حتى بعد عزله من منصب الصدر الأعظم.

وكان "محمد باشا" من بين الأسماء التي تولّت منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان الفاتح، ولأنه ينحدِرُ من أصولٍ روميّةٍ، اشتهر بين الشعب باسم "محمد باشا الروميّ"، تولّى منصب الصدارة العظمى في الفترة بين عامي (١٤٦٧-١٤٧٠م)، لكنه لم يترك انطباعًا جيّدًا بين أفراد الشعب، ويروي المؤرخ الذي عاصر ذلك العهد "عاشق باشا زاده" إن "محمد باشا" كان يسيء معاملة الشعب، وخاصّة الأتراك؛ مما دفع السلطان الفاتح إلى إعدامه.

يعتبر "جَدِيكْ أحمد باشا"، فاتح إيطاليا، من أهمّ الشخصيّات التي تولّت منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان الفاتح، وهو زوج ابنة "إسحاق باشا" أحد الصدور العظام ذوي الأصول التركيّة في عهد السلطان الفاتح، وقد ترعرع "أحمد باشا"، وسط الإنكشاريّة، فهو من أصلٍ صربيٍّ أو ألبانيٍّ، وقد تولّى الصدارة العظمى فيما بين عامي (١٤٧٤-١٤٧٧م)، ولعب دورًا كبيرًا في إخضاع دولة القرم للسيطرة العثمانيّة عام (١٤٧٥م)، وأما الشخصيات ذات الأصل التركي التي تولّت منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان الفاتح فهي: جَانْدَرْلِي خليل باشا، إسحاق باشا، "محمد باشا القَرَمَاني".

وكان من الشخصيات المنحدِرة من أصولٍ روميّةٍ كلٌّ من "مسيح باشا" الذي تولّى قيادة الأسطول البحريّ لفترة في عهد السلطان الفاتح وتقلّد الصدارة العظمى في عهد السلطان بايزيد الثاني وكذلك القائد

المغـوار أمير الأمراء "خاص مراد باشـا" -الذي سـقط شـهيدًا في معركة "أُوتْلُوكْبَلِـي"- ويرجـع أصل "زَاغَانُوسْ باشـا" -الـذي كان يُعارض فريق "جَانْدَرْلِـي خليل باشـا" في أول عهد السـلطان الفاتـح، والذي وقف إلى جانب السـلطان ودعمه لتحقيق حلم فتح القسـطنطينية حتى النهاية- إلى ألبانيا، كما أن "داود باشا" أمير أمراء الروملي خلال حصار مدينة أشقودرة ينحدر هو كذلك من أصولٍ ألبانيةٍ، وأما "خادم سـليمان باشـا" أمير أمراء الروملي فكان من أصلٍ بوسنيّ، فيما كان الصدر الأعظم الشهير في عهد السـلطان ياوز سـليم "هَرْسَـكْ زاده أحمد باشـا" هو ابن دوق "البُوسْـنَة" "سـتيفان"، وقد تربّى في القصر العثمانيّ في عهد السـلطان الفاتح، بينما كان الأميرال "بلطة أوغلو سـليمان بك"، الذي عُزل من منصبه لفشـله في المعركـة البحريّـة ضـدّ اللاتينيّين أيام حصار إسـطنبول، ينحدر من أسـرة بلغاريّةٍ نبيلةٍ.

زاد السلطان الفاتح من سلطته المطلقة بفضل الشخصيّات المنحدرة من طبقة "الدوشرمه" التي أسند إليها مناصب عليا بالدولة، واستطاع السلطان -من ناحية أخرى- ضبط شؤون جيش "قَابِي قُولُو" وأعاد تنظيمه، وأجبره على الطاعة المطلقة، وكان السـلطان يبادر دائمًا إلى تجديد أسـلحة جنود "القابـي قولو-"الذين هم أمهر جنود الجيش العثماني- ويجّدد تجهيزاتِهم العسـكرية باسـتمرارٍ، ويرفـع رواتبهم، وكانت هذه الفئـة من الجنود هي الركيزة الوحيدة التي سيعتمد عليها السلطان الفاتح في الحملات المكثفة التـي قـام بها من أجل فتح القسـطنطينية، واسـتطاع السـلطان أن يُخضـع لإمرته قادة قوّات المغاوير، الذين كانوا يتحرّكون بشكلٍ مستقلٍ ويكثّفون مسـاعيهم للوصول إلى السـلطة عقـب عهد الركود، ونجـح في أن يلقي

بظلاله عليهم بصفته "الحاكم الغازي"، وكان نموذج الدولة المركزيّة التي أسّسها السلطان الفاتح هو الكيان السياسي الوحيد الذي لم يكن له نظيرٌ في أوروبا في تلك الحقبة قط، وقد أسّس العثمانيّون في عهد الفاتح أول نموذج من نماذج الإمبراطوريّات المركزيّة التي سيزيد عدد نماذجها في العصور اللاحقة.

وكان هدف السلطان الرئيس قد تركّز على تحقيق فكرةِ "أن يكون حاكمَ العالم بصفته إمبراطورًا مطلقًا"، ويكتب المؤرخ "جاكوبو لانجوتشي"، الذي كان موجودًا في إسطنبول في السنوات التي تلت فتحها، أن هدف السلطان كان منصبًّا على تأسيس إمبراطوريّةٍ واحدةٍ في العالم يسودها إمامٌ واحدٌ وحاكميّةٌ واحدةٌ، وقد أشار المؤرخ "ابن كمال" إلى فكرة السيطرة على العالم التي راودت السلطان الفاتح بقوله: "كان يذكر الحاكميّة العالميّة دائمًا"، وكان السلطان يصبو في سبيل تحقيق هذه الغاية إلى أن يكون ممثّلَ الجهاد في العالم الإسلامي وحامي بلاد المسلمين.

ولقد سيطرت حالةٌ من السعادة البالغة على العالم الإسلاميّ ابتهاجًا بصمود العثمانيّين أمام الصليبيّين، والمعارك التي انتصروا فيها، والفتوحات التي حققوها، ونشرهم للإسلام في شبه جزيرة البلقان، فعلى سبيل المثال، يقول "ابن كمال" إن الاحتفالات التي نُظّمت في القاهرة عاصمة الخلافة الإسلاميّة ابتهاجًا بفتح القسطنطينيّة دامت لأيام، وأجرت فرق العزف الموسيقي حفلات أمام أفراد الشعب، وتليت الأدعية في الجوامع على أرواح الشهداء بأمرٍ من الخليفة العبّاسيّ، كما أوفد السطان المملوكي رسلًا إلى السلطان الفاتح لتهنِئته بفتح القسطنطينية.

وعلى العكس تمامًا، أصيب الرأي العام في أوروبا بخيبة أملٍ وحزنٍ كبيرَين لسيطرة العثمانيين على القسطنطينية عاصمة الإمبراطوريّة البيزنطيّة وآخر قلعةٍ للنصرانيّة في الشرق، وقد قيّم المؤرّخ الفرنسيّ والأكاديميُّ المعروف "رين جروسيه (*Rene Groesset*)" فتحَ إسطنبول وعلاقات الشرق بالغرب من منظورٍ واسعٍ للغاية، ويعلّق كنتيجةٍ لتحليلِه العميق واستقرائه الدقيق بقوله:

> "... وقد انتهى زحف العثمانيين من "بورصا" وحتى "فيينّا" بانسحابهم حتى مدينة "أَدِرْنَه" عام (١٩١٢م)، وكانت روما هي آخر المعاقل التي فتحها العثمانيّون؛ ذلك أن السلطنة قد تتابع عليها الكثير من السلاطين العظماء الذين تتابعوا تداول العرش واحدًا تلوَ الآخر، وكان هؤلاء السلاطين يتمتّعون بدهاءٍ عسكريٍّ منقطع النظير، وكانوا يعون جيّدًا ماذا يريدون، ولم يكونوا يحملون غايةً في عقولهم سوى فتح القسطنطينيّة، وقد أحيوا بذلك المبادئَ المقدّسة للغزوات التي خرج فيها رسولهم ﷺ بعد قرونٍ طويلةٍ".

لم يكن السلطان محمد الفاتح يطمح لأن يكون حاكمًا عثمانيًا فقط؛ إذ كان يعتبر نفسه وريث أباطرة روما كذلك، وكان العالم الكريتي "جورجيوس ترابيزونتيوس (*Georgios Trapezuntios*)" قد قال للسلطان الفاتح عام (١٤٦٦م) ما يلي:

> "لا أحد يشكُّ في أنك إمبراطور روما، فمن يملك مدينة عرش الإمبراطورية فهو الإمبرطور من الناحية القانونيّة، والقسطنطينية هي مدينة عرش الإمبراطورية الرومانية".

وكان "ترابيزونتيوس" قد عاش في الفترة ما بين عامي (١٣٩٥-١٤٨٤م)، ومات في روما عن عمرٍ ناهز التاسعة والثمانين، وكان عمره

إبّان فتح القسطنطينية خمسةً وخمسين عامًا، فيما كان يبلغ واحدًا وسبعين عامًا عندما قال هذه الكلمات، حيث كان رجلًا ناضجًا يعي جيّدًا ما يقول، ويدّعي "ترابيزونتيوس" أن السلطان محمد الفاتح أعظم من "كوروش" و"الإسكندر الأكبر" و"يوليوس قيصر"، ويقول أيضًا:

> ''لم يقض السلطان الفاتح على الإمبراطوريّة الرومانية، فالإمبراطورية في حدّ ذاتها ما زالت قائمة ولكنها إمبراطوريّة مسلِمةٌ كما كانت من قبل إمبراطورية وثنيّة ونصرانية وأرثوذكسية، ولذلك فإنه يمكننا القول: إن الإمبراطورية الإسلامية العثمانية ابتدأت وتوسّعت وازدهرت من خلال الأماكن التي فتحها العثمانيّون ومن خلال التصرّفات العظيمة التي قاموا بها''.

فيما يقول "جرينارد (*Grenard*)":

> ''يجب اعتبار العثمانيين الجيل المؤسّس الثاني لإمبراطوريّة روما الشرقيّة من أجل فهم تاريخهم جيّدًا، هذا فضلًا عن أنهم بدؤوا محاولاتهم للفتح من المنطقة الجغرافية الأوروبيّة التي أطلقوا عليها اسم الروملي، ولقد ظهرت على الساحة الأوروبيّة إمبراطوريّةٌ جديدةٌ بظهور الأسرة العثمانية، وهناك العديد من المؤرّخين البيزنطيين مثل "تشاكونديلس (*Chalcondyles*)" و"كريتوفولوس (*Kritovulos*)" قالوا إن العثمانيين أخذوا مكان أباطرة روما، وهم -أي المؤرخون- يعتبرون الأسرة العثمانيّة هي الوريث الشرعيّ لروما''.

لقد سيطر العثمانيّون على مناطق إمبراطوريّة روما الشرقية، ثم حان الدور على إمبراطوريّة روما الغربية، غير أن الموت المفاجئ للسلطان محمد الفاتح حال دون تنفيذ هذا المشروع الكبير، ولم يستطع خلفاؤه

تحقيق هذه الغاية، كما كان للظروف والأحوال المتغيّرة أثر كبير في هذا أيضًا.

كان القصر العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح يضمّ، إلى جانب الندماء المسلمين، كادرًا من المستشارين الإيطاليّين والبيزنطيّين، ولقد تمكّن السلطان -بواسطة هؤلاء المستشارين- من الاطّلاع على ثقافة النهضة وتاريخ روما عن كثبٍ، ويرى "بول فوري" أن النهضة الأوروبيّة بدأت بفتح إسطنبول عام (١٤٥٣م)، وكانت شخصيّة الفاتح، التي صارت نموذجًا للحاكم المثاليّ في عصر النهضة، تلقى المدح والثناء في روسيا كما كان كذلك الحال في أوروبا.

وينقل الخبير الروسي بشؤون التاريخ "أقدس نعمت كورات (*Akdes Nimet Kurat*)" في كتابه الذي يحمل اسم "تاريخ روسيا"، أن الأديب الروسي "بريفيتوف (*Perevetov*)" قد عرض كتابًا اسمه "حول السلطان محمد الفاتح" على القيصر "إيفان الرابع"، وعرض شخصيّة الفاتح على القيصر لتكون نموذجًا يُحتذَى به بصفته فيلسوفًا ورجل دولة وسياسيًّا وعسكريًّا عظيمًا، كما أُلّفت ستّ مسرحيّات تتناول حياة السلطان الفاتح في بريطانيا فيما بين عامي (١٥٩٤-١٧٤٩م).

وقد قال المؤرخ البيزنطي "كريتوفولوس (*Kritovulos*)" بينما كان يقدّم كتابه إلى السلطان الفاتح:

> "إلى السلطان محمد المظفّر الغالب بإذن الله وحوله، سيد البر والبحر، سلطان السلاطين، أعظم الأباطرة".

وكان من بين الكتّاب اللاتينيّين الذين قدّموا مؤلّفاتهم إلى السلطان الفاتح نجد "فرانشيسكو برلينجيري (*Françesco Berlinghieri*)" و"روبيرتو

بالتوريا (*Roberto Balturia*)"، هذا إضافةً إلى أن "ستيفانو إيميليانو(*Stefano Emiliano*)" ألّف مرثيّةً عند وفاة السلطان، وأما أشهر الأشعار المقدّمة إلى السلطان فكانت القصيدة التي قدمها "جيوفاني ماريا فيلفو (*Giovanni Maria Fielfo*)" والمكتوبة باللغة اللاتينية ومكوّنة من أربعةِ آلافٍ وسبعمائة وستة أبيات، وكان الشعراء الإيطاليّون يحيون في مثل هذه القصائد من أعماق قلوبهم السلطان محمد الفاتح باعتباره واحدًا من أبرز الشخصيّات التي رعت الفنّ والفنانين في عصر النهضة، وكانوا يقولون إنهم بحاجة إلى زعيمٍ قويٍّ يوحّد إيطاليا المعروفة بكيانها السياسيّ الممزّق.

زادت نفقات ميزانيّة الإمبراطوريّة كثيرًا في عهد السلطان الفاتح، وصُرفت أموال طائلةٌ في سبيل إعادة إعمار إسطنبول المفتوحة وتنميتها، ومن ناحيةٍ أخرى: كانت الحروب التي خاضها السلطان الفاتح، الذي لم يعرف طيلةَ حياته معنى الكلل أو الملل، والحملات التي خرج فيها على مدار ثلاثة عقود قد كلّفت خزينة الدولة نفقات باهظة، وارتفعت المصارف بشكلٍ كبيرٍ للغاية من أجل زيادة أعداد الجنود والإنكشاريّين في قلاع المدن المفتوحة لحمايتها، وزيادة رواتب الجنود، وتجديد مستلزمات الحرب والأسلحة لدى الجيش باستمرارٍ.

ولذا كان السلطان مضطرًّا لإيجاد موارد دخلٍ جديدةٍ لتلبية هذه الاحتياجات، فلم يتردّد في استغلال إمكانيّات الدولة والشعب إلى أقصى درجةٍ، واتّخذَ تدابير جذريّة في سبيل تحقيق هذه الغاية، وهو الأمر الذي أفضى إلى انتشار حالةٍ من السخط بين الشعب.

يمكننا أن نسرد التدابير التي اتّخذها السلطان الفاتح لزيادة موارد الدولة كالتالي: كان يأمر خلال فترة سلطنته بجمع العملة المتداولة

في الأسواق مرّةً كلّ خمسة أعوام تقريبًا، ليستبدلها ويقتطع من قيمتها الخمس، ويكون بذلك قد فرض نوعًا من الضريبة على المعاملات النقديّة، كما فرض احتكارًا على السلع الأساسيّة مثل الصابون والملح والشمع، وأعطاها إلى المستأجرين، وبذلك تمكّن من توفير موارد ماديّة كبيرة لخزينة الدولة، ألغى كذلك وثائق ملكيّة الأراضي التي كانت مملوكةً للدولة في الماضي، والتي تحوّلت إلى أراضٍ وقفيّةٍ أو مملوكة؛ وضمّها من جديد لملكيّة الدولة، ومن ثم وزّع هذه الأراضي على الإقطاعيّين بهدف زيادة عدد الفرسان الذين يتكفّل الإقطاعيّون بتجهيز عتادهم العسكري، وتبرّع بالعقارت التي كانت تُعتبر ملكًا للدولة عقب فتح القسطنطينية إلى الذين قدِموا إلى إسطنبول، وذلك بهدف تشجيع الهجرة من الأقاليم إلى العاصمة الجديدة، غير أنه فرض إيجارًا على تلك الأملاك في وقتٍ لاحقٍ.

لقد منحت هذه الإجراءات الجذرية قوّةً لخزينة الدولة، إلا أنها أسخطت عامّة الشعب والعلماء وأهل الطرق الصوفيّة والتجّار كثيرًا، ولهذا السبب لم يدعم الرأيُ العام ورجالُ الدولة الأمير "جَمْ" في صراعه على العرش عقب وفاة والده، وآثروا دعم شقيقه الأمير بَايَزِيدْ، ذلك أنهم كانوا يعتبرون الأمير "جَمْ" وريثًا لسياسات والده السلطان الفاتح.

السلطان محمد الفاتح بريشة الفنان "لوني (*Levni*)"

"دستور آل عثمان"

يحمل عهد السلطان محمد الفاتح أهمّيّةً كبرى من ناحية تطوّر مفهوم القانون في تاريخ الدولة العثمانية، وقد أسّس السلطان إمبراطوريّةً مركزيّةً من خلال التعديلات التي أدخلها على جهاز الدولة والنظام القانوني، وسعى في سبيل ترسيخ سلطته المطلقة، وكتب الكاتب "ليث زاده محمد أفندي" "دستور آل عثمان"، الذي يمكن أن نعتبره أوّل دستورٍ عثماني كُتب بتعليمات من السلطان محمد الفاتح خلال فترةِ تولّي "محمد باشا القاراماني" منصب الصدر الأعظم، ونفهم من العبارة التي وردت في هذا الكتاب، والتي تقول "هذا الكتاب هو قانون آبائي وأجدادي وقانوني أنا أيضًا"، أن الأحكام الموضوعة في الأزمنة المتعاقبة منذ تأسيس الدولة والمدونة في الديوان السلطاني، قد تمّ إتمامها وتدوينها مع مراعاة الظروف الحياتيّة الجديدة، ويتمتّع كِتاب القانون هذا بأهمّيّةٍ عظيمةٍ من أجل الاطّلاع على تاريخ تنظيم الدولة العثمانية ومؤسّساتها، وقد صار هذا الكتاب منظّمًا لشؤون مؤسّسات الدولة لمئات السنين.

يتألّف كتاب القانون المؤلف في عهد السلطان محمد الفاتح من ثلاثة أقسام، وهي:

١- المكانة البروتوكولية للموظفين الحكوميين في العاصمة والأقاليم.

٢ - تنظيم شؤون الدولة والسلطنة.

٣ - الجرائم والعقوبات وإيرادات رجال الدولة.

لقد طُبقت هذه النصوص القانونية كدستورٍ للدولة اعتبارًا من عهد السلطان محمد الفاتح، وقد أنارت هذه القوانين مفهوم القانون في الدولة العثمانية، كما تعتبر مصدر معلومات قيّم للغاية يوفّر لنا معرفة الخصائص الملامح السياسية والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة لتلك الحقبة، لقد تبنّى السلطان الفاتح مفهومًا قانونيًّا مرنًا، وأراد توفير إمكانيّة إجراء تعديلات وقوانين جديدة حسب الحاجة، حيث قال:

"لقد نظمنا أحوال السلطنة لهذه الدرجة، وليعمل أبنائي الكرام الذين سيأتون من بعدي كذلك على إصلاح هذه القوانين وتعديلها".

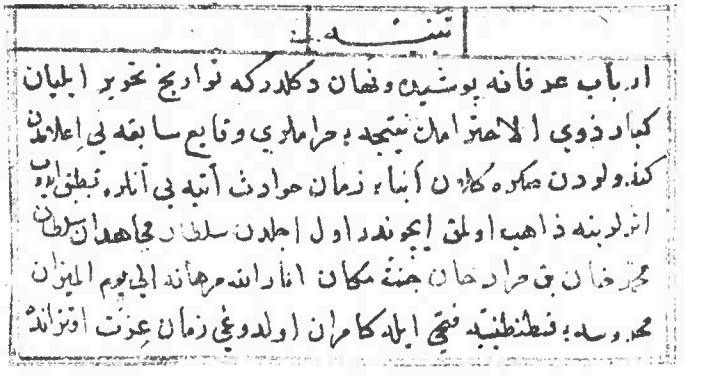

صورة عن الدستور العثماني

من الأمير محمد إلى السلطان الفاتح

ولد السلطان محمد الفاتح، سابع سلاطين الدولة العثمانيّة، بمدينة "أَدِرْنَه" عام (م١٤٣٢)، وترتيبه الرابع بين أبناء السلطان مراد الثاني، وأمه هي "هُما خاتون"، وقد أولى والده اهتمامًا خاصًّا بتعليمه لما لاحظه لديه من ذكاءٍ حادٍّ وحيويّةٍ وصعوبةٍ في المِراس، ودرس الأمير محمد في أولى سنوات حياته في قصر "أَدِرْنَه" على يد أفضل علماء عصره، وكان "مُلا يجان" هو معلمه الأول، ثم أُسندت مهمة تعليمه إلى "آق شمس الدين" الطبيب الذي سُمح له حتى بضرب الأمير إن لزم الأمر.

وعندما بلغ عمره أحد عشر عامًا، انتقل إلى مدينة "مَانِيسَا" كأمير عليها برفقة مربّيه "قصاب زاده محمود" وأستاذته ومستشاريه، ثم أصبح في العام نفسه وريث عرش الدولة العثمانية بعد الوفاة المفاجئة لشقيقه الأكبر "علاء الدين علي جَلَبِي"، أصبح الأمير محمد سلطانًا عام (١٤٤٤م) بعد انسحاب والده من العرش، وهو لا يزال في الثانية عشر

من عمره، غير أن والده السلطان مراد الثاني عاد بعدها بعامين إلى منصبه، لينتقل الأمير محمد مجدّدًا إلى "مَانِيسَا". وانشغل الأمير خلال تلك الفترة حتى عام (١٤٥١م) بزيادة خبرته وصقلِ تجاربه وممارساته.

ويصادف أن الأمير تعرّف إلى الثقافتين الإغريقيّة واللاتينيّة في تلك الفترة، وقد جمع حوله عددًا من أنصار الفلسفة الإنسانية من الإيطاليين والمثقفين الجنويين والبندقيين والنابوليين، وحاول من ناحيةٍ أخرى أن يتعلّم اللغات اليونانية والإغريقية واللاتينية، وكان يقرأ كلّ ليلة جزءًا من تاريخ روما وأوروبا على يد معلّمه "كيرياكوس(*Cyriacus*)" الذي علمه اللاتينية والإيطالية، والذي يعتبر أحد مؤسّسي علم الآثار الحديث، وبدأ الأمير محمد -منذ سنوات إمارته وحتى وفاته- يجمع حوله علماء الإنسانيّات الغربيّين والمثقّفين البيزنطيّين والعرب والإيرانيّين والأتراك ويتواصل معهم باستمرارٍ.

تدهورت الحالة العلمية والثقافية في إسطنبول تدريجيًّا، كما هو الحال في شتّى مجالات الحياة، عقب الاجتياح اللاتيني عام (١٢٠٤م)، وقد دبّت الحيوية سريعًا من جديد في المدينة بعد انتقالها إلى العثمانيين بفضل المبادرات الثقافية، وأراد السلطان محمد الفاتح تحويلَ إسطنبول إلى عاصمةٍ عالميّة يسودها العلم والثقافة والتسامح، ورغب في تأسيس إمبراطوريّته بدءًا من إسطنبول.

زُينت المدينة في عهد السلطان محمد الفاتح بالآثار والأعمال العلمية والثقافية والدينية، وقد حوّل السلطان ثماني كنائس في مختلف أنحاء المدينة إلى مدارس بعد الفتح، وعيّن شخصيّات علميّة بارزةً مثل

"مولانا طوسي" و"خواجه زاده" و"مولانا عبد الكريم" وغيرهم في منصب كبار المدّرسين في هذه المدارس، وقد كلّف السلطان بإنشاء ثماني مدارس كبيرة في كلٍّ من الجهتين الشمالية والجنوبية لجامع الفاتح الذي يُعتبر أوّل جامعٍ كبيرٍ يُبنى في إسطنبول، وأضيفت تسع عشرة غرفة لكلّ قسم من أقسام مدارس "صحن ثمان" التي تعتبر أرفع مؤسّسة تعليميّة أنشأها الفاتح عقب فتح إسطنبول؛ كما خُصصت سبعون غرفة لدار الشفاء التي تعمل بشكلٍ تطبيقيّ، وقد أولى السلطان اهتمامًا عن كثبٍ بالطلاب الدارسين في مدارس "صحن ثمان"، وحضر محاضراتهم بين الفينة والأخرى، وحصل على معلوماتٍ حول تعيينهم وترقيتهم، وكانت هذه المدارس تشتهر بكلّيات الطبّ والحقوق والدراسات الدينيّة على وجه الخصوص؛ إذ كانت تعتبر من المراكز الثقافية الكبرى في تلك الحقبة، وترجع أسس جامعة إسطنبول اليوم لهذه المدارس، حيث يشار إلى عام (١٤٥٣م) على أنه عامُ تأسيس هذه الجامعة العريقة.

وإلى جانب هذه المدارس، أمر السلطان محمد الفاتح بتأسيس مدرستين حول جامعي آيا صوفيا وأبي أيوب الأنصاري، كما كلّف وزراءه بإنشاء الجوامع والخانات والمدارس من أجل إنعاش إسطنبول وأنشأ كلٌّ من محمود باشا وداود باشا ومصطفى باشا المدارس في مناطق المدينة المختلفة، وقد أولى السلطان اهتمامًا بتنظيم نظام المدارس لعلمه بأن الشرط الأول لتأسيس إمبراطورية عالميّةٍ هو تشكيل نظامٍ تعليميٍّ قويٍّ، كما نظّم السلطان شؤون المؤسّسات التعليمية والدينية والقانونية، وكلّف المختصّين بتعديل المناهج التعليمية في مدارس إسطنبول وأَدِرْنَه وبورصا.

كانت هناك علومٌ مثل الفقه والكلام والتفسير تدرَّس بالطرق التقليديّة في المدارس العثمانية حتى عهد السلطان محمد الفاتح الذي اهتمّت الدولة في عصره بشكل خاصٍ بالعلوم الحديثة إلى جانب العلوم التقليديّة، كما دعمت الدولة الأفكار الفلسفية والعلمية وشجّعتها، ورعى السلطان جميع العلماء دون التفرقة بينهم على أساس الدين والعرق والمذهب، الأمر الذي ساهم في حدوث تطوّراتٍ في مجالات الحياة كافة بفضل هذه المناخ العلميّ الحديث.

يقول المؤرّخ النمساوي "بول فيتيك(*Paul Wittek*)" ما يلي:

''نحن مدينون للمعرفة الهندسية الرفيعة والموارد الاقتصادية لدى العثمانيين واللتان ساهمتا في حماية كنيسة آيا صوفيا المتميّزة والمحافظة عليها في مواجهة عوامل التدمير على مرّ القرون، كما أنّ العثمانيّين امتلكوا حضارةً راقيةً تطوّرت في ظلّ العالم الإسلامي، وقد استطاعوا إحداث طفرةٍ حضاريّةٍ عقب فتح القسطنطينية، وفي سبيل تحقيق ذلك أمر السلطان محمد الفاتح بإنشاء جامعٍ جديدٍ يضاهي في تصميمه الهندسيّ آيا صوفيا، إضافة إلى بناء ثماني مدارس ومستشفيات ومكتبة وكلّية جديدةٍ وجامعة تجذب العلماء من مختلف بقاع العالم الإسلامي حول هذا الجامع، وسيتولى خلفاؤه إعادة إعمار المدينة على مدار قرون لتشكّل إسطنبول المتميّزة مستقبل آسيا وأوروبا''.

ويقول المؤرخ الألمانيّ "موردتمان(*Mordtmann*)":

''في حقّ السلطان محمد الفاتح "لقد أحدث نقطةَ تحوّلٍ فارقةً في التاريخ العالمي، وكان إنسانًا جمع في شخصه ثقافة العالمَين الشرقي الغربي''.

وحاول السلطان جمع العلماء المتفرّدين من أصحاب الكلمة العليا في العلوم العقليّة والنقليّة في دولته رغبةً منه في التوليف بين الثقافتين الشرقية والغربية، وبإمكاننا تحليل العلاقات التي أنشأها السلطان في هذا الإطار بين علماء الشرق وفلاسفة الغرب من أجل تحليل رؤيته ونظرته للعالم وشخصيّته المثقّفة على نحوٍ أعمق:

كان زعيم بطريركية القسطنطينية "جناديوس سكهولاريوس (*Gennadios Skholarios*)" يدرّس محاضرات علميّة للطلبة اليونانيّين والإيطاليّين في الأكاديمية التي أسّسها في منزله قبيل فتح المدينة على يد العثمانيّين، وكان يعارض بشدّةٍ فكرة الإمبراطور قسطنطين بالاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية، هذا فضلًا عن أنه عندما أُعلن اتحاد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية عقب طقوس أجراها الكاردينال اللاتيني "أيسيدوروس" في كنيسة آيا صوفيا يوم الثاني عشر من ديسمبر/كانون الأول (١٤٥٢م)، قوبل ذلك بمعارضةٍ شديدةٍ من قِبل "جناديوس"، وقد ازداد احترامه بين الشعب الأرثوذكسي إثرَ موقفه المعارض لـ"أيسيدوروس" ودخوله في جدالٍ معه، ووقع "جناديوس" أسيرًا خلال فتح القسطنطينية وسيق إلى أَدِرْنَه، لكن السلطان محمد الفاتح أمر بنقله إلى القسطنطينية مجدّدًا، ولأنه ليس مؤهّلًا ليكون بطريركًا وفق تعاملات الكنيسة، فقد رُفعت درجته الروحانية، واختير مطرانًا لكنيسة الحواريين التي تعتبر أعلى رتبةٍ روحيّةٍ، ثم جرى تعيينه بطريركًا على رأس النصارى الأرثوذكس عام (١٤٥٤م)، وقد أظهر السلطان الفاتح بهذه الإجراءات انحيازه التامّ للأرثوذكس، وسعى لتعميق الخلافات بينهم وبين الكاثوليك بمرور الوقت، وقد استطاع العثمانيون -بفضل هذه السياسة- الحيلولة

دون اتّحاد جميع النصارى واتّفاقهم على الخروج في حملات صليبيّة جديدةٍ، ونجحت الدولة العثمانية في تأسيس سلطة أكثر سهولة واستمرارًا على الأرثوذكس في البلقان على وجه الخصوص.

ولقد قدّر السلطان محمد الفاتح الخبرة العلمية لدى جناديوس الذي كان عالم دين صادقًا وصريحًا، حيث كانا يعقدان جلساتٍ علميّة فيما بينهما بين الحين والآخر، ولما طلب منه السلطان أن يؤلّف كتابًا يشرح العقائد الأساسية للنصرانية، ألّف جناديوس كتابًا أطلق عليه اسم "رسالة في العقيدة" شرح فيه المعلومات الرئيسة في النصرانية، وقدّمه للسلطان، كما أمر السلطان بعقد مناقشة حول العقيدة النصرانية في حضرته بين العلماء المسلمين والبطريرك "مكسيم مانويل"، وطلب من البطريرك تدوين هذه المناقشة.

ولم يستطع البابا بيوس (١٤٥٨-١٤٦٤م) ذو الأفق الضيق فهم الدراسات الثقافية والسياسية والحوارات التي أجراها السلطان محمد الفاتح مع الفلاسفة النصارى، وظنّ أن السلطان يميل للنصرانية، فأرسل له خطابًا طويلًا عام (١٤٦١م)، وجاء في الخطاب الذي حمل عنوان "*Epistola ad Mahometem*" المنشور في إيطاليا عام (١٤٦٩م) ما يلي:

> "وبالرغم من ذلك، فهناك شيءٌ صغيرٌ وتافهٌ يمكن أن يحوّلك إلى أكبر وأقوى وأشهر إنسان في زمانك، وإذا سألت عن هذا الشيء؛ فليس من الصعوبة إيجاده، ولا داعي إلى البحث عنه لفترةٍ طويلةٍ، فحفنةُ المياه التي سيكون بإمكانك التعميد بها موجودةٌ في كلّ مكانٍ في العالم، تحوّلْ إلى الطقوس النصرانيّة وآمِن بالإنجيل، افعل ذلك كي لا يكون هناك أيّ حاكمٍ في العالم أقوى منك وأكثر عظمة، نعدك أن نعلنك إمبراطورًا على بلاد

الإغريق والشرق، وحينها سيكون لك الحقّ في امتلاك الأراضي التي استوليتَ عليها عنوةً، ولن تستطيع أن تنجح باتّباعك الشريعة الإسلامية، وأما إذا اعتنقت الديانة النصرانية فستكون أعظم شخصيّةٍ في عصرك".

ويضمّ أرشيف الفاتيكان النسخةَ الأصليّة من هذا الخطاب الذي لم يصِل إلى يد السلطان قط لأسبابٍ لا نعرفها، كما لم يصادف أحدٌ أيَّ ردٍّ سلبيٍّ أو إيجابيٍّ من السلطان على هذا الخطاب في أيِّ أرشيفٍ حتى يومنا هذا.

وعندما علم البابا بيوس الثاني، الذي كان يحمل اسم "سلفيو بيتشولوميني (*Silvio Piccolomini*)" قبل أن يصير بابا، وكان من أبرز مؤيدي "الإنسانية (*Humanism*)"[٢١] في القرن الخامس عشر، نبأ سقوط القسطنطينية بينما كان أمينًا مستشارًا في مدينة "جراتس" النمساوية، أعرب عن أفكاره على النحو التالي:

"إننا بصدد الوقوع في مواجهة مع العثمانيين، وكان الإيطاليون هم أصحاب العالم حتى هذه اللحظة؛ وأما العثمانيون فيضعون لبنات تأسيس دولتهم، لذلك فإنّ البندقيّة الآن تمرّ بأزمةٍ خطيرة وتعيشُ آلامًا كبيرة، لأنها ربما تفقد حقها في المرور ليس من البحر الأسود فقط، بل كذلك من الأراضي السورية وجزيرة كريت وحتى البحر الأدرياتيكي".

وقد أعلن المؤرّخ البيزنطي كريتوفولوس ولاءه للسلطان الفاتح عقب فتح القسطنطينية حيث عرف منه أنه قال لصديقه في تاريخ مبكّر

(٢١) "الإنسانية (*Humanizm*)" هي مجموعة من وجهات النظر الفلسفيّة والأخلاقيّة التي تركّز على قيمة وكفاءة الإنسان، سواء كان فردًا أو جماعة، وتفضّل عمومًا التفكير والاستدلالات العقلانيّة والتجريبيّة.

في عام (١٤٤٤م) أنه لن تتجرّأ أيّ قوّةٍ على مواجهة العثمانيّين، وقد عيّنه السلطان عام (١٤٥٦م) واليًا على جزيرة "إمروز"، وعقب تولّيه منصبه لعشرِ سنوات عاد كريتوفولوس إلى إسطنبول بعدما استولى البندقيون على الجزيرة عام (١٤٦٦م)، وأصبح المؤرخ الرسمي للسلطان محمد الفاتح، ويقول في كتابه الذي دوّن فيه إنجازات السلطان الفاتح فيما بين عامي (١٤٥١-١٤٦٧م) "إن السلطان الفاتح يُعتبر من أَحَدِّ الفلاسفة ذكاءً"، ويشرح أنه أمر بترجمة كتاب "حياة المشاهير" لمؤلّفه "بلاوترك" من الإغريقية إلى التركية، وأنه أولى اهتمامًا خاصًّا بحكايات حياة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر.

لقد أُسر الجغرافي والفيلسوف البيزنطي الكبير "جيورجيوس أميروتزس (*Georgios Amirutzes*)" عقب فتح القسطنطينية، غير أنه ما أن عُلم أنه عالِمٌ كبيرٌ حتى ضمّه السلطان إلى كادر مستشاريه، غير أن أبناء دينه الأوروبّيّين اتّهموه بالخيانة بسبب علاقته المقرّبة من السلطان، وكان "أميروتزس" أحد مستشاري السلطان في مجالات الرياضيات والفلسفة والجغرافيا، وقد ترجم -بناءً على طلب السلطان- كتاب "المجسطي (*Almagest*)" الذي ألّفه بطلميوس إلى اللغة العربية، وقد أسلم أحد ابنيه وتسمّى باسم محمد، وترجم هذا الابن الإنجيل إلى اللغة العربية بأمرٍ من السلطان الفاتح، وقد دقّق السلطان خريطة العالم التي رسمها "بطلميوس"، وتصادف في مكتبةِ السلطان آنذاك الترجمة اللاتينية لجغرافية بطلميوس التي ترجمها "جاكوبس أنجلوس" إلى التركية، وكان قصر "طُوبْ قَابِي" قد تحوّل إلى ما يشبه الأكاديميّة الجغرافية في تلك السنوات بسبب شغف السلطان بمعرفة العالم.

لقد لفت انتباه بعض الطبّاعين الإيطاليين الاهتمام الخاصّ الذي أولاه السلطان العثماني بكتب الجغرافيا والخرائط، وسافر الرسام الإيطالي "برلينجيري" إلى إسطنبول من أجل تقديم كتاب "*Geopraphica*" الذي ألفه بطلميوس، وطبعه بعنايةٍ شديدةٍ، إلا أنه لم يتمكّن من اللقاء مع السلطان فاتح لأن السلطان توفّي قبل وصوله فكان من نصيبه مقابلة بايزيد الحاكم الجديد، وخلال اللقاء استطاع الرسّام الإيطاليّ أن يقنع السلطان بشراء الكتاب الذي أعده لوالده السلطان، كما أنه تمكّن من بيع كتابه الآخر للأمير "جم" الذي كان محتجزًا في أوربا آنذاك.

ينتسب "جيرجيوس ترابيزونتيوس" إلى عائلةٍ هاجرت من مدينة "طرابزون" إلى جزيرة "كريت"، ومن ثمّ استقرّت في إيطاليا عام (١٤١٦م)، واعتنق المذهب الكاثوليكي عام (١٤٢٦م) وبادر إلى ترجمة مؤلفات أفلاطون وأرسطو وديموستيني، كما أنه كان عالمًا كبيرًا درّس عددًا من باباوات الفاتيكان، كان ترابيزونتيوس يحمل أمل أن يستطيع الأتراكُ تحقيقَ توحيدِ جميع الأمم الإنسانية تحت قوّةٍ واحدةٍ خلال تلك الحقبة التي قويَ فيها تيّار النزعة الإنسانية، وقد جاء إلى إسطنبول عام (١٤٦٥م) للقاء السلطان محمد الفاتح كممثّل للبابا بول الثاني، لكنه لم يتمكّن من لقاء السلطان، وكتب في طريق عودته مقالًا أطلق عليه اسم "حول عظمة السلطان"، وكان قد حُبس بقرارٍ من اللجنة التي يتولّى رئاستها الكاردينال الطرابزوني "بساريون (*Bessarion*)" بسبب مقالاته حول السلطان الفاتح، إلا أنه طلب العفوَ والصفحَ من البابا، واستطاع أن يُنقذ نفسه من السجن بقوله إنه كتب هذا المديح للسلطان الفاتح لأنه يرى أن ذلك ضروريٌّ في مساعيهم لتغيير دين السلطان، وكان ترابيزونتيوس يقول في إحدى كتاباته عقب مدح السلطان:

"أعتقد أن أحدًا لم ولن يستطيع إدراك تلك الفرصة التي وهبها لكم الرب، ولقد توصّلْتُ إلى هذه النتيجة بعد أن منحكم الربّ القسطنطينية... وقد أوكل الرب لك الحكم بهذا النصر، وذلك كي تجمع كلَّ الشعوب تحت معتقدٍ وكنيسةٍ واحدةٍ ويرتفع قدرُك كحاكمٍ للعالم بأسره".

حصل الرسام الإيطالي "جنتيلي بليني(*Gentile Bellini*)" على دعوة من السلطان لزيارة إسطنبول، فقضى عامي (١٤٧٩-١٤٨٠م) في إسطنبول، ورسم صورةً شخصيّةً للسلطان محمد الفاتح وبعض الصور الأخرى، وتُعرض اليوم الصورة التي رسمها للسلطان الفاتح في المتحف الوطنيّ بالعاصمة البريطانية لندن، ويكتب الإيطالي "أنجيوليلو (*Angiolello*)" إنه التقى "بليني" في القصر بإسطنبول، ومن المعروف أن الرسام والحرفي الإيطالي المنحدِر من مدينة فيرونا في جمهورية البندقية "ماتيو ديباتسي" زار هو الآخر إسطنبول، لكنّ أحدًا لم يصادف أيَّ أثرٍ له، ويعتقَد أن السلطان جمع معلوماتٍ من هؤلاء الفنّانين الذين دعاهم من إيطاليا لزيارة إسطنبول حول بلدانهم، ويُمكن اعتبار المغامرة التي عاشها "ماتيو ديباتسي (*Matteo D'Patsi*)" مثالًا نموذجيًّا لهذا الأمر، وكان جنود البابا قد أوقفوه على الحدود وفتّشوه، وعندما وجدوا معه خطابًا مكتوبًا للسلطان محمد الفاتح، أُلقي القبض عليه وحوكم بتهمة التجسّس.

سجّل السلطان محمد الفاتح أبناء النبلاء البيزنطيّين في مدرسة "أندرون" بالقصر عقب فتح إسطنبول، ومن ثم عيّن هؤلاء الأشخاص في المناصب المختلفة بالدولة في السنوات اللاحقة، وقد تولى محمد باشا ومسيح باشا منصب الصدر الأعظم، وأما خاصّ مراد باشا فقد تولّى منصب أمير أمراء الروملي، أي إن العلماء البيزنطيين والنخب السياسية

قد دُمجت في بُنية الثقافة العثمانية بعد الفتح، وسُمح لهم بالمساهمة في الحياة الاجتماعية والسياسية في الدولة العثمانية، ويُعتبر هذا النهج مؤشّرًا بارزًا على بدء ترسّخ رؤية الإمبراطورية لدى الدولة العثمانية.

لقد وضع السلطان الحكيم جميع العلماء تحت حمايته ورعايته دون أن يفرّق بينهم على أساس العرق أو الأصل أو المعتقد، وقد ارتقت الدراسات العلمية والمستوى الثقافيّ في الدولة العلية العثمانيّة في القرن الخامس عشر بفضل الاهتمام الذي أولاه السلطان محمد الفاتح للعلم والفلسفة، إن هذه الطفرة العلمية وموجة التأليف والترجمة التي بدأت في عهد السلطان الفاتح قد آتت أكلها في الحقبة التالية لعصر السلطان، وخلال تلك الحقبة درس العثمانيون العلوم الحديثة في فروعٍ شتّى بجانب العلوم الإسلامية، وقد وصلت الخبرة العلمية الإسلامية الكلاسيكية إلى أعلى مستوياتها لا سيّما في مجال علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطبّ، وعلى سبيل المثال، ألّف ثلاثةٌ وأربعون عالمًا خلال تلك الفترة ثلاثةً وستين كتابًا في الرياضيات.

لم يكتف السلطان محمد الفاتح بإعلان إسطنبول -التي كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح- عاصمةً لدولته، بل رغب في أن يجعلها مركزًا للعالم الإسلامي والعالم القديم الذي كان معروفًا آنذاك، ولتحقيق هذه الغاية دعا العلماء الذين توصل إليهم للقدوم إلى إسطنبول في مقابل عروض جذابة، ويعتبر انتقال الفلكي الكبير "علي قُوشْجُو (*Kuşçu*)" (ت ١٤٧٤م) من تبريز وتعيينه في منصب كبير مدرّسي مدرسة آيا صوفيا خيرَ مثالٍ على هذه الفكرة التي تبنّاها السلطان الفاتح إبّان حياته.

وقد تربى "علي قُوشْجُو" -الذي لُقِّب بـ" قُوشْجُو زاده" لأن أباه عمل في قصر "أولوغ بك" وهو أحد أشهر سلاطين دولة تيمور- في مهمّة تربية الصقور، وتلقّى العلم من علماء القصر في تلك الحقبة مثل "قاضي زاده" و"جمشيدي كاشي (*Cemşidi Kaşi*)"، وعيّن مديرًا على مرصد سمرقند بعد وفاة معلّمه "قاضي زاده"، وقد ألّف أعمالًا نادرةً في مجالي الفلك والرياضيات، وأما أهمّ كتابٍ ألّفه "علي قُوشْجُو" فكان شرح "الزيج" الذي كتبه إلى "أولوغ بك"، وقد أورد المؤلّف في هذا الكتاب براهين النظريّات والمشاكل المكتوبة في مقدّمة الزيج أو الجداول السلطانية، وعقب مقتل "أولوغ بك" على يد ابنه عبد اللطيف عام (١٤٤٩م)، انتقل "علي قُوشْجُو" من سمرقد إلى تبريز عاصمة قبيلة "آقْ قُيُونْلُو"، وكان ضمن وفد الرسل الذي أرسله "أُوزُونْ حسن" إلى إسطنبول، ولاحظ السلطان محمد الفاتح إمكانيّات "علي قُوشْجُو"، فعرض عليه الاستقرار في إسطنبول، وبعد محاولة السلطان لإقناعه بإصرار، وافق "علي قُوشْجُو" على هذا العرض، وعاد إلى إسطنبول عقب إتمام مهمّته الدبلوماسيّة برفقة مائة شخصٍ، وقد منحه السلطان ألف درهم كمصاريف سفر عن كلّ مكانٍ نزل به خلال رحلته الطويلة إلى إسطنبول، وبعدما وصل عاصمة الدولة العثمانية، عُيّن في منصب كبير المدرّسين في مدرسة آيا صوفيا براتب يوميٍّ بلغ مائتي درهم، كما منحته إدارة الدولة مهمّة تنظيم البرامج التعليمية في مدارس آيا صوفيا وصحن ثمان، وكانت المحاضرات التي يُلقيها في مدرسة آيا صوفيا تحظى باهتمامٍ كبيرٍ ويحضرها عددٌ كبيرٌ من طلّاب العلم.

المُفتي

حقّقت الدولة العثمانية تقدُّمًا ملحوظًا في المجال العلمي على أيدي الطلاب الذين تلقّوا العلم على يد "علي قُوشْجُو" الرياضي والفلكي العظيم في إسطنبول، ويُعتبر "علي قُوشْجُو"، والرياضي والفلكي الكبير

الآخر "فتح الله الشـرواني"، من آخر النجوم التي تلألأت في سـماء نهضة الدولـة التيموريّة، حيث ألّف "علي قُوشْـجُو" أعمـالًا متميّزةً وربّى مئات الطـلاب، وكان الشـرواني، الذي درس على يد قاضي زاده في سـمرقند، قـد انتقـل إلى الأناضول في عهد السـلطان مراد الثانـي، وأُدخل إلى نظامِ التعليـم العثمانـيّ، وربّى العديد من الطلبـة بعدما عمل في حقل التدريس في مدارس إسطنبول لسنواتٍ طويلةٍ، وتوفّي عام (١٤٨٦م)، وكانت هاتان الشخصيّتان من روّاد الفلك والرياضيات في الدولة العثمانيّة بفضل نقلهم للخبـرة العلميّة من الشـرق إلـى الغرب، أي إلى الأراضـي العثمانية، كما ساهما في إيجاد مبادرةٍ جديدةٍ وإنشاء رؤيةٍ ثقافيةٍ حديثةٍ من خلال المزج بين الخبرة العلمية لطرفي العالم الإسلامي الشرقي والغربي.

يعتبر "سنان باشا" الذي توفّيَ عام (١٤٨٦م) من أبرز علماء إسطنبول فـي عهد السـلطان محمد الفاتـح، وقـد درس على يد أفضل علماء عصره في مرحلة شـبابه مثل "مُلا خُسْـرَوْ" و"مُلا جُورَانِي" و"خواجه زَادَه" و"مُلا يَجَانَه"، وتفوّق في حياته بفضلِ ذكائه ومهاراته، وعُيّن أوّلًا عميدًا لمدرسة صحـن ثمـان، ثم رقّي إلى منصب معلم السـلطان الخاصّ، وألّف أعمالًا فـي مجـالات الرياضيـات والفلـك والفلسـفة والـكلام والفقه والتفسـير باللغـة العربية، وأُسـند إليه منصب وزاري عـام (١٤٧١م)، ثم عُيّن صدرًا أعظـم، ممّا جعل الناس يلقّبونه بـ"الوزير المعلم"، ويروى أن سـنان باشـا لم يستسـغ حضـور دروس الرياضيات التي كان يعقدها "علي قُوشْـجُو" عندما انتقل إلى إسطنبول لتكبُّره وغروره، ولذلك كان يُرسل تلميذه "مُلا لطفـي الطوقاتلي" لحضور دروس "علي قُوشْـجُو"، ثـم يتلقّى العلم عنه، وعندما أصدر السـلطان قرارًا باعتقال سـنان باشـا بسـبب وقوعه في خطإٍ

ما، قام علماء ذلك العصر بتهديد السلطان بحرق كتبهم العلمية إذا لم يتمّ الإفراج عنه، وعلى إثر ذلك اضطرّ السلطان أن يفرج عنه، وعيّنه قاضيًا على "سِوْرِي حِصَارْ"، وتُظهر لنا هذه الواقعة المدهشة كيف أن علماء عهد السلطان محمد الفاتح كانوا يمتلكون شخصيّةً يستطيعون من خلالها الوقوف في وجه السلطان، وكيف أنهم كانوا يتمتّعون باعتبارٍ كبيرٍ عند السلطان.

ولقد تولّى العالم الكبير المنحدِر من مدينة بورصا "خواجه زاده" الذي توفّيَ عام (١٤٨٨م) على مدارِ حياته مناصب رفيعةً جدًّا مثل التدريس والقضاء العسكريّ وتعليم السلطان وتولّى منصب القاضي في إسطنبول، وكان مولعًا بالدراسات والأبحاث العلمية لدرجةٍ جعلته يستقيل من جميع مناصبه الرسمية التي كانت تحول دون تفرُّغه لأبحاثه العلمية، قد اشتهر "خواجه زاده" بتفوُّقه في مجال التدريس إضافةً إلى اعتلائه المناصب الرفيعةَ في الدولة، وكان معروفًا في إيران وآسيا الوسطى، وقد أرسل السلطان التيموري "حسين بايقرا" عالمًا خراسانيًّا مع المبعوث الذي أوفده لتهنئة جلوس السلطان بايزيد الثاني على العرش، وذلك خصّيصًا لتلقّي العلم عن "خواجه زاده"، وقد شارك في مناقشاتٍ علميّةٍ مع معظم علماء عصره في القصر في حضرة السلطان، وانتصر عليهم في أغلبها، وكان "مُلا زَيْرَكْ" و"علي قُوشْجُو" من بين هؤلاء العلماء، وكان السلطان محمد الفاتح مغرمًا تمامًا بالميتافيزيقا وتاريخ الأديان والمذاهب، وقد كلّف "خواجه زاده" بمناقشة موضوعاتٍ حول التوحيد في حضرته، واستمرّت المناقشة بين "خواجه زاده" و"مُلا زيرك" لسبعة أيام، إلى أن انتصر خواجه زاده بعد منافسةٍ شديدةٍ حكّم فيها "مُلا خسرو"،

ويـرى المؤرخ التركـي المعاصر "عدنـان آدِيوَارْ" أن خواجـه زاده يذكّرنا بخاصّيته تلـك بنموذج "الدكاترة العالميـن (*Doctores Universales*)" في أوروبا، وذات مرّةٍ وجّه السلطان محمد الفاتح سؤالًا إلى أستاذه "خواجه زاده" الذي تلّقى عنه دروس القانون حيث قال:

"ألا يخيفك الدخول في مناقشةٍ معي؟"

فأجابه "خواجه زاده":

"نعـم، أخـاف الدخول في مناقشـةٍ معك بصفتـي واحد من رعيتك، ولكن لا أخاف مناقشتك بصفتي معلّمك، فأنت سلطاني خارج القصر، أما هنا فإنك تلميذي وأنا أستاذك".

كانت شـخصية السلطان الفاتح بعيدةً عن التعصّب ومنفتحةً وتمتلك أفـكارًا حـرّةً، وكان يدعـو العلمـاء إلى القصر كلّما سـنحت لـه الفرصة، ويكلّفهـم بإجـراء المناقشـات العلميّـة وكتابة الرسـائل العلميّة من خلال تكليفهم بمناقشـة المسـائل المعضلة، ومن ثم يقـوم بتدقيقها، وكان يقدّر وجهـات نظـر علماء عظمـاء أمثال "خواجـه زاده" و"مُـلا جوراني" و"آق شـمس الدين" و"علـي قُوشْـجُو"، وكان يكلّفهم بإجراءِ مناقشـاتٍ علميّةٍ عميقةٍ في الفلسفة والدين في حضرته.

كان العالم الخراسـاني الكبير "مُلا جامي" من أبرز الشـخصيّات التي سـعى السـلطان الفاتح لدعوتها إلى إسـطنبول، وما إن علم السـلطان بنبإ ذهـاب هذا العالـم الكبير إلى الحجّ، حتى أصدر أوامره باسـتضافته على أحسـنِ وأكمـلِ وجهٍ في المـدن التابعة لـه، ودعاه للقدوم إلى إسـطنبول عبر مبعوثٍ أرسـله إليه بينما كان في دمشـق، وفي مقابل ذلك؛ مدح "مُلا جامي" السلطانَ الفاتح في كتابه الذي حمل اسم "**الرسالة الإرشادية**" من

باب شكر السلطان، وقد لبّى مُلا جامي دعوة السلطان الثانية ووافق على الذهاب إلى إسطنبول، وخرج برفقة حشدٍ كبيرٍ من الناس، لكنّه عندما وصل إلى مدينة "قونيا" وصله نبأُ وفاة السلطان، فتأثّر بهذا الخبر كثيرًا وعاد إلى بلاده.

لقد شهد عصر السلطان محمد الفاتح ظهورَ حكماء بارزين في مجال الطبّ، ما أسهم في تحقيق تطوُّرٍ كبيرٍ في هذ المجال بفضل هؤلاء العلماء، وكان "شرف الدين صَابُونْجُو أُوغْلُو" الذي توفّيَ عام (١٤٦٩م) من أهمّ الأطباء في تاريخ الطبّ العثمانيّ، وكان قد حقّق شهرته الكبيرة في مجال الجراحة، كما ألّف أعمالًا مهمّة في مجال الطبّ، وترجم كتاب العالم الأندلسي الكبير "الزهراوي"[٢٢] "**كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف**" إلى اللغة التركية بعنوان "**الجراحيات الخانيّة**"، ويعتبر هذا الكتاب -الذي شرحَ فيه الأدوات المستخدمة في الجراحة وتقنيّاتها معبرًا عنها بالرسوم- واحدًا من الكتب المهمّة في مجال التعليم الجراحي، وقد ألّف كتابًا حملَ اسم "مُجَرَّبْ نَامَه (*Mücerrebname*)" عام (١٤٦٨م) أضاف إليه جميع خبراته وتجاربه، شرح فيه طرق العلاج العمليّ، ويُعتبر "صابونجو أوغلو" من روّاد الصيدلة التجريبيّة، حيث كان يَختبر الأدوية التي يكتشفها والخلطات التي يجهّزها على الحيوانات من خلال تجارب عجيبةٍ، وعلى سبيل المثال، جعل ثعبانًا يعضّ ديكًا، ثم أعطى للديكِ ترياقًا أبقاه على قيد الحياة.

(٢٢) ولد الزهراوي في مدينة الزهراء، وترجع أصوله إلى الأنصار، عاش الزهراوي في قرطبة، حيث درس وعلّم ومارس الطب والجراحة، أما أول من كتب سيرته الذاتية فهو الحميدي في كتابه "جذوة المقتبس في ذكر علماء الأندلس"، الذي كتبه بعد ستين عامًا من وفاة الزهراوي حيث قال عنه أنه: "من أهل الفضل والدين والعلم"، ووصفه "غوستاف لوبون" بأنه: "أشهر جراحي العرب، حيثُ وصف عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص، فعُدَّت من اختراعات العصر الحاضر على غيرِ حقٍّ"، وقد توفي الزهراوي عام ٤٢٧هـ.

كان "آلْتُونِي زَادَه" من أشهر خبراء أمراض المسالك البوليّة في زمانه، وتسترعي انتباهَنا الأفكارُ الموجودة في الكتاب "**مائدة الحياة**" الذي ألفه آق شمس الدين، معلّم السلطان الفاتح، حيث تناول فيه مسألتي "الميكروب والعدوى"، وإذا أردنا أن نذكر أسماء بعض الأطبّاء المشهورين في تلك الحقبة فنجد في المقدّمة: "حكيم عرب" و"خواجه عطاء الله" و"حكيم لاري"و"يعقوب باشا".

هاجر يعقوب باشا، الإيطاليّ ذو الأصل اليهوديّ، إلى الدولة العثمانية بعد ما نفى البابا نيكولا الخامس العرب واليهود المقيمين في إيطاليا وألغى جميع امتيازاتهم المهنية، فاعتنق الإسلام، ثم ترقّى في مجالات الطبّ حتى وصل إلى مرتبة كبير الحكماء، كما تولّى مهمّة الرعاية الطّبّيّة الخاصّة للسلطان الفاتح، وهو الطبيب الذي أعدمه الإنكشاريون وقطّعوه إربًا إربًا بعد موت السلطان الفاتح، حيث حمّلوه مسؤوليّة وفاته.

أمر السلطان محمد الفاتح بملء مكتبته في قصر طُوبْ قَابِي بالكتب المؤلفة باللغات التركية والعربية والفارسية واليونانية واللاتينية، ولا تزال هذه الكتب محفوظةً في متحف القصر إلى يومنا هذا، ومعلومٌ أن السلطان الفاتح أكسب مكتبته الشخصيّة ومكتبات آيا صوفيا ومدارس صحن ثمان نحو ثمانمائة كتاب، وقد أجرى البروفيسور الألماني "أدولف ديسمان (*Adolf Deismann*)"، عضو هيئة التدريس بجامعة "برلين"، دراسةً حول مكتبة السلطان الفاتح كشفت أن المكتبة ضمّت خمسمائةً وخمسةً وثمانين كتابًا سوى الكتب الدينية ، هذا فضلًا عن بيع مائةٍ وخمسةٍ وثمانين مخطوطة إغريقية من مكتبة القصر عام (١٦٨٥م).

كان السلطان محمد الفاتح يكتب الشعر باسم مستعار هو "عَوْنِي"، وهو أوّل السلاطين العثمانيين الذين ألّفوا ديوانًا شعريًّا، وقد زادت قيمة الأدب والشعر في عهده، كما لم يبخل بمدّ يد العون والرعاية للأنشطة العلمية والثقافية، وحَظْرِ جميع الأوضاع التي من شأنها الإضرار بالطفرة الثقافية، وفيما يلي نسرد واقعةً رواها المؤرخ هامر كمثال جميلٍ على هذا الأمر:

"تحدّث السلطان محمد الفاتح يومًا مع مُلا ينحدر من شبه جزيرة القرم عن أن القرم ولايةٌ عامرةٌ، وأنها أفرزت العديد من العلماء والفضلاء، وأنهم منشغلون دائمًا بأعمال التأليف، لكن المُلا ردّ عليه بقوله إن هذه الأوضاع كانت سائدةً في الماضي، أما اليوم فإنّ وزير جلالتكم الأخير عامل العلماء معاملةً سيئةً وحوّل ولايات القرم -التي كانت كالجنة- إلى صحراء جرداء، وقد شرح السلطان هذه الواقعة للصدر الأعظم محمود باشا، ونبّهه مجدّدًا بشأن ضرورة معاملة أهل العلم والعرفان بالحسنى والرفق".

كان السلطان محمد الفاتح يمزح مع الحكماء والدراويش طالما كانوا يحترمونه ولا يتجرّؤون عليه، وكان يقابل تصرّفاتهم العجيبة بتسامحٍ، وكان أحد الدراويش قد تعرّف على السلطان في أحد الأيام التي كان يتجوّل فيها بلباس التخفّي، فدنا منه وقال:

"لقد خلق الله ﷻ مائةً وأربعةً وعشرين ألف رسول فليعطني السلطان درهمًا على حبِّ كلّ واحدٍ من هؤلاء".

فتبسّم السلطان ممازحًا وقال:

"حسنًا، قل لي أسماء هؤلاء الرسل وأنا أعطيك ما تشاء من دراهم!".

ومن أين سيعرف الدرويش هذا الكم من أسماء الرسل؟! ولم يستطع إلا أن يقول خمسة أو عشرة أسماء منهم، وبهذه الطريقة نجا السلطان من أن يدفع لهذا الدرويش كثيرًا من المال.

لقد كان رجال الدولة في القصر السلطانيّ يقفون بين يدي السلطان في وقارٍ تامّ، بينما كان المجال مفتوحًا أمام العلماء يتحدّثون ويتناقشون الأمور والمسائل والمستجدّات مع السلطان بكلّ حميميّةٍ وودّ.

وبطبيعة الحالة فقد كانت هذه المعاملة الرفيعةُ والمتميّزة التي كان يعامل بها السلطانُ العلماءَ دافِعًا وحافزًا لرجال الدولة كي يبذلوا اهتمامًا أكبر بالعلماء ويرعونهم ويدعمون أنشطتهم العلمية.

كان السلطان الفاتح يستمتع بارتداء اللباس العلميّ حين يكون في عاصمة دولته، باستثناء أوقات الخروج إلى الحملات، وكان يتجوّل مرتديًا عمامةً من الشاش الأبيض الرقيق المجعّد العريض حيثُ يلفّه على قلنسوةٍ قطنيّةٍ مستدقّة الطرف.

لقد كان السلطان محمد الفاتح متديّنًا ومتسامحًا بعيدًا عن التعصّب ومنفتحًا، ولم يتوقّف عن الجهاد في سبيل الله طيلة حياته، ويقول المؤرخ "كاريتو" مؤلف كتاب "**الأتراك في البحر الأبيض المتوسط**" -الذي حلّل فيه التاريخ التركيّ العثماني تحليلًا جيّدًا- ما يلي:

> "كان السلطان محمد الفاتح مسلمًا حقيقيًّا بالرغم من ولعِه بالثقافة الغربيّة".

وكان السلطان ينظم الشعر بعباراتٍ منفتحةٍ للغاية مقارنةً بالعصر الذي كان يعيش فيه، حيث كان يقول:

نيّتي هي امتثال جهاد في سبيل الله

وحماستي هي حماسة الدين الإسلامي فحسب.

وترشدنا هذه الكلمات إلى وجهة نظر السلطان حول الدنيا، وكان السلطان يولي اهتمامًا كبيرًا لتطبيق أوامر الإسلام ونواهيه، إلى جانب الجهاد في سبيل الله، ونورد نصَّ قرارٍ سلطانيٍّ (فرمان) أرسله إلى ولايات الروم من أجل رعاية وتذكير الرعيّة بالصلاة التي هي عماد الدين، حيث يقول:

"ندعو الله أن ييسِّر لنا تطبيقَ أوامره، وما أُريد أن أوضحه في هذا الفرمان هو: ما وصلني أن السكّان المسلمين المقيمين في المدن والقرى والنواحي في ديار الروم يتهاونون في أداء أوامر الدين الإسلاميّ واتّباع السنّة النبويّة ولا ينقادون لأوامر ونواهي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ووصلني أنهم وضعوا آية ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/٤٣) وراء ظهورهم، ولا يتبعون الحديث الشريف "**الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ، مَنْ أَقَامَهَا أَقَامَ الدِّين، وَمَنْ هَدَمَهَا هَدَمَ الدِّين**"(٢٣) وأنهم اتّبعوا طريق الضلال والطغيان، وحوّلوا المساجد والجوامع إلى خرابةٍ، وعمروا أماكن الفسق والفجور، وإذا كانت هذه الأنباء التي وصلتني صحيحةً، فإني سأعيّن رجلًا من رجالي ليقوم بمهمّة ومسؤوليّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأصدرتُ أوامري بتحديد ومعرفة تاركي الصلاة لمعاقبتهم، ذلك أن الإسلام شرع لنا ضربَ تارك الصلاة وتغريمه غرامةً ماليّةً، وليتنبَّه الشعبُ بأهمّيّة أداء الصلاة، وليشّهر بتاركيها بين عامّة الناس، ولن يمانع أو يجادل أحدٌ -مهما كان- في تنفيذِ هذه المعلومات،

(٢٣) البيهقي: شعب الإيمان، ٤/٣٠٠.

وعلى جميع الأمراء والولاةِ والقضاة ومسؤولي الأمن ومن تحت إمرتهم أن يتعاونوا مع الشخص الذي أرسلته إليهم، ولن يُسمَح أبدًا بالتواني عن أداء أوامر الإسلام الحنيف ونواهيه، بحيث ستمتلئُ المساجد وستعمر المدارس وسيقوى الدين الإسلامي بإذن الله وبهذه الطريقة سيعيش المسلمون في بُلهنيةٍ من العيش وطمأنينةٍ وسعادة، ويدعوا لاستمرار دولة السلطان وزيادة قوّتها. ولتعرفوا هذا جيّدًا، ولتعتمدوا على توقيعي هذا".

ماذا قالوا عن السلطان محمد الفاتح

استقرّ "إيسيدوروس (*Isidoros*)" في إيطاليا عام (١٤٣٩م) بعد أن تولّى منصبَ كبير رهبان "دير العزيز ديميتريس" في القسطنطينية، ثم عاد إليها عام (١٤٥٢م) بصفته كاردينالًا مكلّفًا من قبل الفاتيكان، حيث أدار طقوس دينية كاثوليكية في كنيسة آيا صوفيا وأعلن فيها اتّحاد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، وكان إيسيدوروس متواجدًا في القسطنطينية أثناء حصارها من قبل العثمانيين، وأُسندت إليه مهمّة الدفاع عن المنطقة المحيطة بدير العزيز ديميتريوس، غير أنه أُصيب بسهم في رأسه وسقط أسيرًا في أيدي الأتراك، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه من الأسر بعدما دفع الفدية ونجح في تضليل الجنود الأتراك عن هويّته في الوقت الذي كان فيه مطلوبًا لدى الجيش العثماني، ثم وصل إلى البندقية على متن سفينة تركية مرورًا بمدينتي "فوتشا" و"كانديا" و"جزيرة خيوس"، وقد عايش إيسيدوروس حصار القسطنطينية بكلّ تفاصيله واكتسب معلومات حول السلطان محمد الفاتح، حيث قال في حقه:

''يقرأ السلطان حياة الإسكندر كلّ يوم من كتبٍ مختلفةٍ، وهو يرغب في أن يحكم العالم بأسره أكثر من الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر''.

وحذّر بابا الفاتيكان بقوله:

"يا أيها الأب المقدس! إن السلطان العثماني يهدّد النصرانية أجمع، ومن المتوقّع أن يستغلّ قوّته خلال فترةٍ وجيزةٍ ليبسط نفوذه بقوّة السلاح على مدينتك روما".

وكان رجل القانون الإيطالي المنحدر من مدينة "بادوفا" "دوتي (*Dotti*)" قد نُفيَ إلى جزيرة "كريت" لمشاركته في واقعة اغتيال عام (١٤٣٨م)، وكان هذا الرجل متواجدًا في القسطنطينية إبّان فتحها، وقد توصّل "دوتي" -بعد أن استمع إلى الروم الذين قدموا إلى جزيرة "كريت" عقب الفتح- إلى قناعةٍ وَقَرَتْ في أعماقه فعبّر عنها قائلًا:

"إن هذا السلطان المدهش، الذي يُعتبر بمثابة الإسكندر الثاني، قد جمع في شخصه قوّةً كبيرةً جدًّا بإرادةٍ لا مثيل لها".

وأما "ميشيل دوكاس (*Michael Doukas*)"، الذي أُرسل إلى السلطان الفاتح كرسول عام (١٤٥٥م) وسنحت له فرصة الحديث باستفاضةٍ مع جنود الإنكشارية بفضل إتقانه اللغة التركية، فيكتب في كتابه الذي أورد به معلوماتٍ قيّمةً حول العلاقات العثمانية البيزنطية بعد عام (١٣٤١م):

"كان السلطان محمد الفاتح يفكر ليل نهار وفي جميع أحواله كيف سيفتح القسطنطينية وما هي الأسلحة والمعدّات التي سيتخدمها لتحقيق هذه الغاية.."

ويقول في موضع آخر:

"لقد فقد البيزنطيون مدينة القسطنطينية واستولى عليها العثمانيّون كعقابٍ لهم من قِبَلِ الإله".

فيما يعتبر "بينفوجلينتي (*Benvoglienti*)" الصديق المقرب للبابا بيوس الثاني، وسفير "سيينا"[٢٤] لدى البندقية، وأحد المؤيدين بشدّة لشنّ هجماتٍ صليبيّةٍ جديدةٍ ضدّ العثمانيّين، يقول:

"إن السلطان محمد أقوى من جميع الملوك الذين أرادوا أن يحكموا العالم مثل الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر".

وأما المؤرّخ الشهير "سيكوندينوس (*Sekoundinos*)" الذي سقطَ برفقة عائلته أسيرًا في أيدي العثمانين لمدة ثلاثة عشر شهرًا عند فتح مدينة "سالونيك" عام (١٤٣٠م)، والذي عمل كمترجم في جزيرة "وابية"، ثم في مدينة فلورنسا، فقد وصف السلطان محمد الفاتح كالتالي:

"يمتلك السلطان محمد ذكاءً حادًّا وعميقًا، وقد أظهر كيف أن ثقافته حول شؤون الإدارة والقصر كانت عميقةً للغاية عقب فترةٍ وجيزةٍ من تولّيه السلطنة خلفًا لوالده، حيث ألغى كلّ شيءٍ غير ضروريٍّ وعديم للفائدة لم يولي اهتمامًا بالصيد والطيور والرقص والغناء والولائم، ومن ناحيةٍ أخرى؛ فلم يكن كسولًا قط، وإنما هو منشغلٌ ويتحرّك دائمًا، يفكّر ويطبّق ما يقرّره بدقّةٍ لاتصدّق، لا تمنعه الظروف المناخيّة السيّئة من تحقيق ما يرنو إليه، ولا يتأثّر بالبرد والجوع والعطش، وهو يهتمّ بالأدب والفلسفة في نفس الوقت الذي يهتمّ فيه بإدارة الدولة، ويلتفُّ حوله -في ساعاتٍ محدّدةٍ- العديد من العلماء والفلاسفة، فيتحدّث معهم بصدقٍ وودٍّ، ويستقرئُ تحت إشرافهم التاريخ القديم، ولا يهتمّ فقط بتاريخ إسبرطة أو أثينا، بل يهتم كذلك بتاريخ روما وقرطاج، كما

(٢٤) سيينا -باللغة الإيطالية (*Siena*)- مدينةٌ بوسط إيطاليا في إقليم توسكانا، وهي عاصمة مقاطعة سيينا، تشتهر عالميًّا بموروثها الفنّي وصناعة الأثاث، وقد عُدّت المدينة ضمن الموروث الأنسانيّ من اليونسكو.

يعجَب كثيرًا بالاطلاع على إنجازات الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر".

ولقد اعتبر المؤرخ "بابينجر" أن ما كتبه سيكوندينوس يُعدّ بمثابة أوّل تجربةٍ أوروبّيّة لتعريفِ جذر الأتراك وتاريخ العثمانيّين.

ويصوّر "زورزو دولفين (*Zorzo Do\fin*)" الذي كان يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا إبّان فتح القسطنطينية، السلطان الفاتح بالكلمات التالية:

"قليل الضحك، كثير الكرم والسخاء، لا يفتأ عقله وذكاؤه عن العمل، يتحمّل جسده البرد والحر والجوع والعطش، عنيد في تحقيق مشروعاته ومقدامٌ غير عاديّ وجريءٌ جدًّا، وهو كالإسكندر الأكبر لا يشبع من الشرف والمجد، ويتكلّم بشكلٍ قاطعٍ دون أن يخجل من أحدٍ، وقد منع نفسه عن المتَعِ والمرح، وهو يتحدّث التركية واليونانية والصربيّة بطلاقةٍ، ولديه طموحاتٌ جمّةٌ في شتّى المجالات، ويخصّص وقتًا يوميًّا لقراءة الكتب ويطالع تواريخ الإمبراطورية الرومانية ولاريس وهيرودوت وتيتوس ليفيوس وكوينتي كورس والفاتيكان وملوك ألمانيا وفرنسا ولومبارديا، ويعرف جغرافيا إيطاليا بجميع تفاصيلها، وكذلك يعرف الحكومات الأوروبية، ولا يهمل اصطحاب خريطةٍ كبيرةٍ لأوروبا أينما ذهب، وكان يرغب دائمًا أن يكون مسيطرًا على زمام الدولة، وهو ماهرٌ فيما يتعلّق بتوفيق شؤون دولته والتأقلم حسب الظروف المختلفة في سائر البلدان الأخرى".

ويصف الإيطالي "لانجوستو (*Langusto*)"، الذي عاصر عهد السلطان محمد الفاتح، السلطان بالعبارات التالية:

''كان السلطان محمد الفاتح دقيق القسمات، طويل القامة، يتصرف بنُبل، طيّب القلب، تشعر وأنت أمامه بالخوف أكثر من الاحترام، نادرًا ما يضحك، حذِر، شغوفٌ بالعلم والتعلم لأقصى الحدود، عنيدٌ في تنفيذ أهدافه، واثقٌ في نفسه دائمًا، بارعٌ في استخدام الأسلحة، يسعى لتحقيق شهرةٍ لا تقلّ عن تلك التي حقّقها الإسكندر الأكبر، يقرأ تاريخ روما كلّ يومٍ على يد "كرياكو" أو شخص إيطالي آخر ولا يوجد شيء يعجبه أكثر من فنون القتال، وهو باحثٌ ذكيٌّ يريد تعلّم كلّ شيءٍ، ليس لديه ميلٌ للفجور أو الفسوق، ويتحكّم في نفسه جيّدًا، يكتفي بالقليل، وليس لديه ميل للشهوة، ويتحمّل جميع الصعاب، وتراوده دائمًا فكرة تأسيس إمبراطوريةٍ وسلطنةٍ واحدةٍ في العالم كله، ولديه قناعة بأنه ليس هناك مكان مناسب أكثر من إسطنبول لتأسيس هذا الاتّحاد العالمي''.

وأما "سيومرن (*Soemmern*)"، الذي استغلّ منصبه الحسّاس داخل القصر الباباوي للحصول على معلوماتٍ مهمّةٍ من وثائق وأشخاص رفيعي المستوى حول فتح إسطنبول والعثمانيين والسلطان الفاتح، فيقول إن السلطان "سيستولي على روما أيضًا وسيستأصل شأفة النصرانية"، ويصرخ "كويريني (*Quirini*)" بقوله:

''إن الشعوب النصرانية على حافّة خطرٍ عظيمٍ''.

فيما يقول المؤرخ العثماني "نشري" ما يلي:

''يُروى أن السلطان محمد الفاتح كان كريمًا وعادلًا وشجاعًا وعالمًا ومتديّنًا، وكان كلّما صادف شخصًا من أصحاب الكفاءة كان يستقدمه إلى إسطنبول ويخصّص له راتبًا شهريًّا، كما كان يستقدم أيّ شخصٍ ماهرٍ في أيّ فنٍّ من الفنون والأدب ويخصّص

لـه دخـلًا، لم يكن أحدٌ يأتـي إلى بابه ويُردّ خائبًـا، وإذا خرج إلى التنزّه أو التجوّل يتصدّق على الفقراء كلّما رآهم، ولم يكن يوجد أيّ فقيرٍ في إسـطنبول لم يحصل على صدقةٍ منه، وكان متواضعًا بعيدًا عن التكبّر، وإن كان في أعلى مراتب العظمة ورأى درويشًـا يتواضـع لـه علـى الفـور، وكان العلمـاء والصالحون والشـعراء والفقـراء والـكلّ يعيشـون مرفّهين فـي عهده وذلك لوفـرةِ الأمن والأمان، لدرجة أنه إذا سرق أحدٌ لم يكن يُترَك دون عقوبةٍ، وكأنّ السـرقة والأعمـال المنافية للأخلاق وقطـع الطـرق قد أُلغيت من أراضي الدولة العثمانية، وكانت السـيدة تسـتطيـع أن تسـير بعربةٍ محمّلةٍ بالذهب لمدّة يومين دون أن يعترضها أو يسرقها أحد".

ويشدّد الأستاذ "صلاح الدين أفندي" على النبل والمجد اللذين كانت تتمتّع بهما شخصيّة السلطان محمد الفاتح، فيقول:

"أخلاقـه الحميدة لا نهاية لها ومواقفه الكريمة لا حصر لها، كما كانت تصرّفاته الجميلة كثيرةً جدًّا كجوده الجمّ، وكان مفهوم العـدل لديه يتلخّـص في فكرة أنك إذا عرضتَ عليه ملك سـيدنا سـليمان مقابـل إيذاء نملـةٍ أعرض عن ذلك وبـادر بالرفض، ولم يكـن يريد أن يسـوءَ حظّه بسـبب آهات الملظومين، وكان كريمًا لدرجـة أن القلـم الذي يكتب أفعال الخيـر التي يفعلها يجفّ قبل أن ينجـز مهمّتـه، وكان شـجاعًا لدرجـة أن بهرام يملّ من اسـمه، ويخجل إسفنديار من حكايته، وكانت أيّ منطقةٍ يتوجّه إليها تسعد بأنباء وبشارات النصر والتأييد".

وفي الختام...

لقد فتح السلطان محمد الفاتح إسطنبول وهو في الحادي والعشرين من عمره، وبذلك يكون قد حقق حلمًا راود العديد من الحكّام والسلاطين قبله لمئات السنين، وإذا نظرنا إليه من هذا المنظور؛ نجد أن السلطان الفاتح يُعتبر شخصيّةً استثنائيّةً يفخر بها التاريخ التركيّ الإسلاميّ، وكان السلطان صاحب إرادةٍ وعزيمةٍ قويةٍ، رزينًا متّزنًا، يطبّق قراراته بسرعةٍ متناهيةٍ، حازمًا في إدارة الدولة، ناجحًا في الحفاظ على هدوء أعصابه ورباطة جأشه، عالمًا، يُتقن عددًا من اللغات، علاوةً على أنه أديبٌ وشاعر، وقد عقد العديد من المؤرّخين مقارناتٍ بينه وبين عددٍ من الأباطرة والحكّام العظماء أمثال الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابوليون بونابارت وغيرهم، وبالتأكيد كانت هذه الشخصيات التاريخيّة الكبيرة تتمتّع بالعديد من الميزات المهمّة، لكنّ البونَ شاسعٌ بينهم وبين ما يتمتّع به السلطان الفاتح من مهارات شتّى ومواهب متعدّدة، فقد كان من أبرز الشخصيّات إثارةً على مرّ العصور وكرّ الدهور حيث كان محاربًا مغورًا في جبهات القتال، وصاحب تكتيكاتٍ حربيّة ماكرةٍ، ومثقّفًا كبيرًا في شتّى المجالات والعلوم، ورومانسيًّا مرهف

الحسّ عندما يمسك القلم، ومقاتلًا لا يعرف التعب أو الإرهاق في الغزو والحروب، ورجلًا شرقيًّا غير معقّدٍ في مواجهة الغرب، وصاحب عقيدةٍ متينةٍ راسخةٍ وإيمانٍ قويٍّ خالٍ من التعصّب والتطرّف.

كانت الشجاعة والبطولة جزءًا مهمًّا في شخصيّة هذا السلطان الاستثنائي، وقد واجه السلطان في العديد من المرّات الكثير من المخاطر والمهالك وسار بجواده -متحدّيًا الموت- نحو صفوف العدوّ دون خوفٍ أو وجلٍ من أجل تحقيق الخطط التي كان يفكّر بها والأهداف التي كان يرنو إليها، لقد كان يتمتّع بالعديد من الفضائل والشمائل كالشجاعة والإرادة القويّة والعزيمة الراسخة، حتى إنه قد سار بجواده نحو صفوف العدوّ أثناء حصار "بلجراد" وحارب بنفسه بعد حدوثِ فوضى مؤقّتة بين صفوف جنوده الذين سيطرت عليهم حالة من الانقسام، واستطاع قتلَ ثلاثة جنودٍ صربيّين، وأُصيب في جبهته وساقه، حيث ظلّ جرحه الذي أصيب به في جبهته طيلة حياته يلازمه كذكرى من معركة بلجراد، كما غضب السلطان على جنوده من طائفة الإنكشارية بعدما انبطحوا أرضًا في مواجهة التجهيزات العسكرية الدفاعيّة والمدافع التي أعدّها حاكم "بوغدان" في الغابة لصدّ تقدّم القوّات العثمانية، فسارع السلطان الفاتح على متن حصانه إلى صفوف العدوّ بشجاعة محضةٍ وبسالةٍ فائقة، ولعب دورًا حاسمًا في قلبِ المِجَنّ على رؤوس أعدائه وتحقيق النصر المؤزّر، هذا فضلًا عن أن السلطان الفاتح سار بجواده إلى البحر بعد خسارة قائد الأسطول "بلطة أوغلو" المعركة البحريّةَ التي نشبت مع السفن الجنويّة بالقرب من ساحل منطقة "زيتين بورنو" إبّان حصار القسطنطينية، ويقول المؤرخ هامر:

"إن السلطان محمد الفاتح فعل ذلك وكأنه أراد أن ينتزع النصر من بين أيدي الجنويّين".

كان السلطان محمد الفاتح رجل فِعالٍ وكفاح لا أقوال وانبطاح، حيث خرج في خمسةٍ وعشرين غزوة على مدار حياته، ولم يكن يعلم أحدًا بوجهة غزوته حتى اللحظات الأخيرة بهدف الانقضاض على العدوّ بشكلٍ مفاجئٍ حتى يفوّت الفرصة على العدوّ في تجهيز عدّته وعتاده، وكان يرغب في أن يسيطر على البلاد التي أراد أن يفتحها دون حربٍ، خشية الإضرار بالبنية الاقتصادية لهذه البلدان، وكان يعرض على أهالي القلاع أو المدن التي يريد فتحها الاستسلام دون اللجوء إلى خوض حربٍ معهم.

كان السلطان الفاتح يحسب جميع تفاصيل الغزوة التي سيخرج فيها والحرب التي سيخوضها بدقّةٍ متناهيةٍ، ويضع خططًا بديلةً لمواجهة أيّ عقباتٍ تواجهه، وأفضل مثالٍ على ذلك هو تفقُّده لأسوار القسطنطينية عدّة مرّاتٍ قبل المبادرة إلى حصار المدينة وهو لا يزال في الحادي والعشرين من عمره، وتكليفُه قادةَ جيشه تحديد نقاط القوة والضعف في هذه الأسوار، ثمّ بدأ بوضعِ الخطط وفق هذه المعطيات، وقد أصدر السلطان تعليماته بإنشاء قلعة الروملي في أنسب مكان بإسطنبول من أجل قطع أيّ مساعداتٍ تحاول الوصول إلى المدينة، وزوّد القلعة بالمدافع، ونصب مقرّ قيادته خلال الحصار أمام منطقة طُوبْ قَابِي التي تُعتبر أضعف مكانٍ بأسوار القسطنطينية، وإذا وضعنا بعين الاعتبار أن الإمبراطور قسطنطين قد نصب مقرّ قيادة جيشه في المنطقة ذاتها من أجل أن يستطيع الدفاع عن هذه النقطة الضعيفة بشكلٍ أفضل، وكذلك

أن الجنـود العثمانيّين دخلوا المدينة من منطقة طُوبْ قَابِي؛ نفهم كيف أن توقّعات السلطان الفاتح كانت صائبةً ودقيقةً بشكل كبير، ويجب أن نتذكّر الحملـة العسـكريّة التـي قادها السـلطان وأدّت إلى تضييـق الخناق تمامًا علـى الإمبراطوريـة البيزنطية وهدمت معنويّات قادتهـا وجنودها؛ إذ عمد السـلطان إلى إصدار تعليماته بتسـيير سـفن أسـطوله من فوق اليابسة، في حركةٍ عجيبةٍ أدهشت أعداءه، ومن ثم أنزل سفنه إلى خليج القرن الذهبي ليُحاصر المدينة من كلّ الجهات.

كان السلطان محمد الفاتح يتمتّع بشخصيّةٍ عسكريّةٍ شجاعةٍ وناجحةٍ، وكان في الوقت نفسه دبلوماسيًّا حاذقًا وسياسيًّا بارعًا، ويمكننا أن نصادف العديد من النماذج التي تثبت هذه الصفة في شخصيّة السلطان إذا وضعنا حياته تحت عدسـة المجهر، فلقد أحسـنَ السلطان في سنين حكمه الأوَل -بينما كان لا يزال يبلـغ واحدًا وعشـرين ربيعًا- معاملةَ الرسل البيزنطيّين الذين وفدوا إليه بطلباتٍ جديدةٍ، ووافق على هذه الطلبات، ولم يظهر نيته ولم يُخِف عدوّه، كما فضّل عقد معاهدة سلامٍ مـع المجر وإيطاليا للحيلولة دون خـروج حملـةٍ صليبيّةٍ جديدة، وبالرغم من علمـه بتقديم الغالاطيّين المسـاعدات للبيزنطيّين خلال حصار إسـطنبول إلا أنـه تغاضى عن ذلك ولم يرد توسيـع جبهة القتال، لكنه بادر عقب فتح المدينة على الفور إلى إخضاع أراضي "غالاطة" للسـيطرة التركية، ولقد تصرّف السـلطان بشكل تنازليّ للغاية مـع السـفراء المجريّين خلال غزوة "أُوتْلُوكْبَلِي" بهدف منـع شـنّ أيّ هجـومٍ يأتي مـن أوروبا، حتى إن الوفد المجـريَّ ظن أن بإمكانه الحصـول علـى كل ما يريد، غير أن السـلطان ماطلهم طيلـة فترة الغزوة، ومن ثمّ رفض مطالبهم وسمح لهم بالمغادرة عقب انتهاء الغزوة مباشرةً،

وفـي الوقت نفسـه كانت الفِرقُ الخاصـة العثمانية تُغير بشـكلٍ دائم على أراضي البندقية، وهذا ما دفعهم إلى تقديم المسـاعدات للقَرَمَانيّين وقبيلة "آقْ قُيُونْلُو" عبر أسطول البندقية في البحر المتوسّط.

لـم تكـن الحمـلات العسـكريّة التي قام بها السـلطان محمـد الفاتـح عشـوائيّةً، بل كان يقوم بتخطيطٍ دقيقٍ لكلّ حملةٍ يقوم بها، وإذا نظرنا إلى مـا حقّقـه في نهاية فترة تولّيه العرش نجـد أنه نجح في تحقيق كلّ أهدافه في البحر الأسود والبلقان وبحر "إيجَه" والأناضول، وكان قد حان الوقت المناسب لمباغتة روما والسيطرة على قلب النصرانية في عُقْر دارها، وبدأ بالفعل يعدّ العدّة لذلك، لكنّ المنيّةَ عاجلَتْه قبل تحقيق ذلك.

يُعتبـر السـلطان محمـد الفاتـح شـخصيّةً عظيمةً اعترف لهـا أعداؤها قبـل محبّيها بذكائها ودهائها، ولقد حـوّل الدولة العثمانية إلى إمبراطوريّةٍ حقيقيّةٍ، وبنى الدولة على أُسُسٍ لا تتزعزع، ولقد لعبت الدولة المتينة التي أسّسـها السـلطان محمد الفاتـح وأنظمة الجيش العملاقة التي أقرها؛ دورًا بـارزًا ومحوريًّـا في التصدّي للمخاطر والحملات التي شـنّها الأوروبيون علـى للعالم الإسـلامي والنجاح في صدّها فـي تلك الحقبة، وإن لم يكن العثمانيـون قـد وقفوا أمـام الجيوش الصليبيّـة كقلعةٍ منيعةٍ، لـكان العالم الإسلامي قد تعرّض في تلك الحقبة للاحتلال الأجنبيّ الذي تفشّى وظهر جليًّا في أراضيه في القرن العشرين، وأما السبب الرئيس لانعدام الهجمات الصليبيّة الكبرى على الأراضي الإسلاميّة في الفترة الواقعة ما بين القرنين الثالث عشـر والعشرين فهو وقوف العثمانيين في وجه الجيوش الأوروبيّة ومنعها من تجاوز منطقة الروملي.

وللأسف فإنّ الإنسان لا يعرف قيمةَ الشيء الذي يمتلكه إلا بعد فقدانه، وإذا أردنا إدراك أهمّيّة الدولة العثمانية بالنسبة للعالم الإسلامي؛ فيجب علينا أن نتذكّر المآسي التي عاشها المسلمون عقب انسحاب الدولة العليّة العثمانيّة من المشهد التاريخي بعد الحرب العالمية الأولى، حيث ظهرت عقب سقوط الدولة العلية العثمانيّة ظروف جديدة، وبدأ المحتلّون الأوروبّيّون يفعلون ما يحلو لهم في منطقة الشرق الأوسط، وظهرت الحدود الجديدة التي رسموها وفق مصالحهم، وكذلك خرجت إلى الساحة دولٌ مستعمرةٌ جديدةٌ أنشؤوها بأنفسهم، وسالت الدماء وانهمرت الدموع طيلة القرن العشرين وحتى الآن.

المصادر

Abdülkadir Özcan, Akıncı Maddesi,"Türkiye Diyanet Vakfı İslam Ansiklopedisi, İstanbul 1989, Cilt 2.

عبد القادر أوزجان، "مادة المغاوير"، الموسوعة الإسلامية بوقف الديانة في تركيا، إسطنبول (١٩٨٩)، المجلد الثاني.

Abdülkadir Özcan, "Atam Dedem Kanunu Fatih Kanunnamesi,"Yitik Hazine Yay. İstanbul 2013.

_____، "رسالة قانون السلطان الفاتح: قانون آبائي وأجدادي"، دار يتيك خزينه للنشر، إسطنبول (٢٠١٣).

A. Adnan Adıvar, "Osmanlı Türklerinde İlim," Remzi Kitabevi, İstanbul 2000.

عبد الحق عدنان آديوار، "العلم عند الأتراك العثمانيين، دار رمزي للنشر، إسطنبول (٢٠٠٠).

Ahmet Şimşirgil, 'Birincil Kaynaklardan Osmanlı Tarihi-Kayı II. Cilt ,"Şems Kitapları, İstanbul 2006.

أحمد شيمشيرجيل، "التاريخ العثماني من المصادر الأولية - قايي، المجلد الثاني"، دار شمس للنشر، إسطنبول (٢٠٠٦).

Ahmet Yaşar Ocak, 'İstanbul'un Fethinin İdeolcjik Arka Planı,"550. Yılında Fetih ve İstanbul Bildiriler, TIK. Yayınları, Ankara 2007.

أحمد ياشـار أوجاق، "الخلفية الأيديولوجية لفتح إسـطنبول"، بيانات حول إسـطنبول والذكرى الـ ٥٥٠ للفتح، منشـورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٧).

Ahmed Bin Hanbel, "Müsned,"IV. Cilt.

أحمد بن حنبل، "المسند"، المجلد الرابع.

Ali Sevim-Yaşar Yücel, "Klasik Dönemin Üç Hükümdarı: Fatih, Yavuz, Kanuni,'TTK. Yay., Ankara 1991.

علي سـفيم - ياشـار يوجل، "ثلاثة سـلاطين في الحقبة الكلاسيكية: محمد الفاتح، ياوز سـليم، سـليمان القانوني"، منشـورات الجمعيـة التاريخية التركية، أنقره (١٩٩١).

Ali Sevim-Yaşar Yücel, "Türkiye Tarihi," TTK. Yayınları, Ankara 1995.

علي سـفيم - ياشـار يوجـل، "تاريخ تركيا"، منشـورات الجمعيـة التاريخية التركية، أنقره (١٩٩٥).

Ali Yardım, "Fetih Hadisi Üzerinde Bir Araştırma," Diyanet İşleri Baş. Dergisi XIII/2 (Mart- Nisan Sayısı),

علـي ياريديم، "دراسـة حول فتح إسـطنبول"، مجلة رئاسـة الشـؤون الدينية ٢/١٣ (عدد مارس - أبريل).

Alphonse de Lamartine, "Cihan Hâkimiyeti-Türkiye Tarihi," 3.Cilt, Tercüman 1001 Temel Eser.

ألفونس دو لامارتين، "السيطرة على العالم - تاريخ تركيا"، المجلد الثالث.

Âşık Paşaoğlu Tarihi,"MEB. Yayınları, İstanbul 1992.

"تاريخ عاشـق باشـا أوغلـو"، منشـورات وزارة التعليم الوطني، إسـطنبول (١٩٩٢).

Cahid Baltacı, "XV. ve XVI. Yüzyıllarda Osmanlı Medreseleri," Marmara Üniversitesi İlahiyat Vakfı Yayınları, İstanbul 2005.

جاهد بالطجي، "المدارس العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر"، منشورات وقف الإلهيات بجامعة مرمرة، إسطنبول (٢٠٠٥).

Carter V. Findley, "Dünya Tarihinde Türkler," Kitap Yayınevi, İstanbul 2008.

كارتر ف. فيندلي، "الأتراك في التاريخ العالمي"، دار كتاب للنشر، إسطنبول (٢٠٠٨).

Daniel Goffman, "Osmanlı Dünyası ve Avrupa 1300-1700," Kitap Yayınevi, İstanbul 2008.

دانييل جوفمان، "العالم العثماني وأوروبا: ١٣٠٠ - ١٧٠٠"، دار كتاب للنشر، إسطنبول (٢٠٠٨).

"Doğuştan Günümüze Büyük İslam Tarihi," III. Cilt, Çağ Yay., İstanbul 1992.

"تاريخ الإسلام الكبير منذ النشأة إلى اليوم"، المجلد الثالث، دار جاغ للنشر، إسطنبول (١٩٩٢).

Ekmeleddin İhsanoğlu, "Eğitim ve Bilim,"Osmanlı Medeniyeti Tarihi II. Cilt. Zaman Feza Yay., İstanbul 1999.

أكمل الدين إحسان أوغلو، "التعليم والعلم"، تاريخ الحضارة العثمانية المجلد الثاني، دار زمان فضاء للنشر، إسطنبول (١٩٩٩).

Erendiz Özbayoğlu,"550. Yılında Fetih ve İstanbul, Bildiriler," TTK. Yayınları, Ankara 2007.

أريندیز أوزباي أوغلو، "إسطنبول والفتح في ذكراه الـ ٥٥٠: بيانات"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٧).

Ergeni Raduşev, "Balkanlar ve Fetih,"550. Yılında Fetih ve İstanbul, Bildiriler, TTK. Yayınları, Ankara 2007.

أرجيني رادوشيف، "البلقان والفتح"، إسطنبول والفتح في ذكراه الـ ٥٥٠: بيانات، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٧).

Feridun Emecen, "Osmanlı Klasik Çağında Siyaset,"Timaş Yayınları, İstanbul 2009.

فريدون أمجان، "السياسة في العصر العثماني الكلاسيكي"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠٠٩).

Feridun Emecen, "Osmanlı Klasik Çağında Savaş,"Timaş Yayınları, İstanbul 2009.

_____، "الحرب في العصر العثماني الكلاسيكي"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠٠٩).

Feridun Emecen, "İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu Beylikler Dünyası,"Kitabevi Yayınları, İstanbul 2005.

_____، "العثمانيون الأوائل وعالم إمارات غربي الأناضول"، دار كتاب ايفي للنشر، إسطنبول (٢٠٠٥).

Feridun Emecen, "Osmanlı Siyasi Tarihi," Osmanlı Devleti Tarihi I. Cilt, Editör Ekmeleddin İhsanoğlu, Zaman Feza Yayıncılık, İstanbul 1999.

_____، "التاريخ السياسي العثماني"، تاريخ الدولة العثمانية المجلد الأول، تحرير: أكمل الدين إحسان أوغلو، دار زمان قضاء للنشر، إسطنبول (١٩٩٩).

Feridun Emecen, "Fetih ve Kıyamet,"Timaş Yayınları, İstanbul 2012.

_____، "الفتح والقيامة"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠١٢).

Franz Babinger, "Fatih Sultan Mehmed ve Zamanı,'Oğlak Yayınları, İstanbul 2003.

فرانز بابينجر، "السلطان محمد الفاتح وعهده"، دار أوغلاك للنشر، إسطنبول (٢٠٠٣).

Fuad Köprülü, "Osmanlı İmparatorluğu'nun Kuruluşu," Akçağ Yayınları, Ankara 2003.

فـؤاد كوبرلو، "تأسـيس الإمبراطوريـة العثمانية"، دار آقتشـاغ للنشـر، أنقره (٢٠٠٣).

Gıacomo E. Carretto, 'Akdeniz'de Türkler,"TTK. Yayınları, Ankara 2000.

جياكومـو ا. كاريتـو، "الأتـراك فـي البحـر الأبيض المتوسـط"، منشـورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٠).

H.Çetin Arslan, "Türk Akıncı Beyleri ve Balkanların İmarına Katkıları,"Kültür Bakanlığı Yay. Ankara 2001.

تشـتين أرسـلان، "أمـراء المغاوير الأتراك وإسـهاماتهم في إعمـار البلقان"، منشورات وزارة الثقافة، أنقره (٢٠٠١).

Halil İnalcık, "Osmanlı İmparatorluğunun Klasik Çağı," YKY. İstanbul.

خليـل إينالجيـك، "العصـر الكلاسـيكي للإمبراطورية العثمانيـة"، دار يتيك خزينه للنشر، إسطنبول.

Halil İnalcık, "Osmanlılar; Fütuhat, İmparatorluk, Avrupa ile ilişkiler,"Timaş Yayınları, İstanbul 2010.

خليـل إينالجيـك، "العثمانيـون: الفتوحـات، الإمبراطوريـة، العلاقـات مـع أوروبا"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠١٠).

Halil İnalcık, "Kuruluş Dönemi Osmanlı Sultanları,"İsam Yayınları, İstanbul 2010.

خليل إينالجيك، "السلاطين العثمانيون في عهد التحرير"، وقف بحوث العلوم الإسلامية، إسطنبول (٢٠١٠).

Halil İnalcık, 'Fatih Devri Üzerinde Tetkikler ve Vesikalar,"T.T.K. Yay. Ankara 2007

خليل إينالجيك، "دراسة وثائقة حول عصر السلطان محمد الفاتح"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٧).

Halil İnalcık, "Devlet-i Aliyye,"İş Bankası Kültür Yayınları, İstanbul 2011.

خليل إينالجيك، "الدولة العليا"، المنشورات الثقافية لبنك إِيشْ (العمل)، إسطنبول (٢٠١١).

Halil inalcık-Mevlut Oğuz, "Gazavat-ı Sultan Murad B. Mehemmed Han,"TTK. Basımevi, Ankara 1989.

خليل إينالجيك - مولود أوغوز، "غزوات السلطان محمد بن مراد"، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٨٩).

Halil İnalcık,"Türk Devletlerinde Sivil Kanun Geleneği," Türkiye Günlüğü Dergisi, Sayı 58, 1999.

خليل إينالجيك، "تقليد القانون المدني في الدول التركية"، مجلة يوميات تركيا، العدد ٥٨، (١٩٩٩).

Hüseyin Algül, "Büyük Fetih ve Sonrası,"Nil Yayınları, İzmir 1991.

حسين آلجول، "الفاتح الكبير وما بعده"، دار النيل للنشر، إزمير (١٩٩١).

İbrahim Kafesoğlu, "Türk Milli Kültürü," Boğaziçi Yayınları, İstanbul 1993.

إبراهيم قفص أوغلو، "الثقافة القومية التركية"، دار بوغازيتشي للنشر، إسطنبول (١٩٩٣).

İlber Ortaylı, "Osmanlıyı Yeniden Keşfetmek,'Timaş Yayınları, İstanbul 2009.

إيلبر أورتالي، "إعادة اكتشاف العثمانيين"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠٠٩).

İlber Ortaylı, "Tarihimiz ve Biz,'Timaş Yayınları, İstanbul 2009.

إيلبر أورتالي، "نحن وتاريخنا"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠٠٩).

İlber Ortaylı-Taha Akyol "Osmanlı Mirası,'Timaş Yayınları, İstanbul 2010.

إيلبر أورتالي - طه آقيول، "الإرث العثماني"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠١٠).

İsmail Hakkı Uzunçarşılı, "Osmanlı Devleti'nin İlmiye Teşkilatı," TTK. Ankara 1998.

إسماعيل حقي أُوزُونْ تشارشيلي، "النظام العلمي في الدولة العثمانية"، الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٩٨).

İsmail Hakkı Uzunçarşılı, 'Osmanlı Tarihi,"Cilt II. TTK. Basımevi, Ankara 1995.

إسماعيل حقي أُوزُونْ تشارشيلي، "التاريخ العثماني"، المجلد الثاني، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٩٥).

İsmail Hakkı Uzunçarşılı, "Akıncı Maddesi," İslam Ansiklopedisi, 1940, I.Cilt.

إسماعيل حقي أُوزُونْ تشارشيلي، "مادة المغاوير"، الموسوعة الإسلامية، (١٩٤٠)، المجلد الأول.

İsmet Miroğlu,"Fetret Devrinden II. Bayezide Kadar Osmanlı Siyasi Tarihi,"Doğuştan Günümüze Büyük İslam Tarihi Ans. X. Cilt, Çağ Yay., İstanbul 1992.

عصمت مير أوغلو، "التاريخ السياسي العثماني منذ عهد الفترة إلى عهد السلطان بايزيد الثاني"، موسوعة التاريخ الإسلامي الكبير منذ النشأة وحتى اليوم، المجلد العاشر، دار تشاغ للنشر، إسطنبول (١٩٩٢).

Jean Paul Roux, "Türklerin Tarihi, Pasıfikten Akdeniz'e 2000 Yıl," Kabalcı Yayınevi, İstanbul 2007.

جان بول رو، "تاريخ الأتراك: ٢٠٠٠ عام من المحيط الهادئ إلى البحر المتوسط"، دار قابالجي للنشر، إسطنبول (٢٠٠٧).

Josɛfh Von Hammer Burgstall, "Osmanlı Devleti Tarihi," Üçdal Neşriyat, İstanbul 1983.

جوزيف فون هامر - برجشتال، "تاريخ الدولة العثمانية"، دار أوتشدار للنشر، إسطنبول (١٩٨٣)

Levon Panos Debağyan, "Paylaşılamayan Belde Konstantiniyye," IQ Kültür Sanat Yayınları, İstanbul 2003.

ليفون بانوس ديباغيان، "القسطنطينية: المدينة التي لا تتجزأ"، دار آي كيو للثقافة والفن، إسطنبول (٢٠٠٣).

Machiavelli, "Hükümdar,"Göçebe Yayınları, İstanbul 1997.

نيكولو مكيافيلي، "الحاكم"، دار جوتشبه للنشرة، إسطنبول (١٩٩٧).

Mehmet Zeki Pakalın, "Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü,"MEB. Yayınları, İstanbul 1966.

محمد ذكي باقالين، "قاموس مصطلحات التاريخ العثماني"، إصدار وزارة التعليم الوطني التركية، إسطنبول (١٩٦٦).

Mehmet Ali Ünal, "Osmanlı Müesseseleri Tarihi,"Isparta 1997.

محمد علي أونال، "تاريخ المؤسسات العثمانية"، إسبرطة (١٩٩٧).

Mehmed Neşri, 'Kitab-ı Cihannüma, Neşri Tarihi," Yayınlayanlar: Faik Reşit Unat, Mehmet Altay Köymen, TTK Basımevi, Ankara 1987.

محمد نشري"، "كتاب جهان نامه، تاريخ نشري"، الناشرون: فائق رشيد أونات، محمد آلتاني كويمان، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٨٧).

Mustafa Akdağ, "Türkiye'nin İktisadi ve İçtimaı Tarihi," Cem Yayınevi, İstanbul 1995.

مصطفى آقداغ، "تاريخ تركيا الاقتصادي والاجتماعي"، دار جم للنشر، إسطنبول (١٩٩٥).

Mustafa Armağan, "Ufukların Sultanı, Fatih Sultan Mehmed,"Timaş Yayınları, İstanbul 2010.

مصطفى أرماغان، "السلطان محمد الفاتح: سلطان الآفاق"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠١٠).

Necdet Sakaoğlu, 'Bu Mülkün Sultanları,"Oğlak Yayınları, İstanbul 1999.

نجدت سقا أوغلو، "سلاطين هذا المُلك"، دار أوغلاك للنشر، إسطنبول (١٩٩٩).

Nıcolas Vatın, "II. Bayezid'in Diplomasi Araçları," Harp ve Sulh Osmanlılar, Editör Dejanirah Couto, Çeviri Şirin Tekeli, Kitap Yayınevi, İstanbul 2010.

نيكولا فاتين، "الوسائل الدبلوماسية لدى السلطان بايزيد الثاني"، العثمانيون في الحرب والسلام، تحرير: ديجانرا كوتو، ترجمة: شيرين تكيلي، دار كتاب للنشر، إسطنبول (٢٠١٠).

Nıcolae Jorga, 'Osmanlı İmparatorluğu Tarihi," Yeditepe Yayınları, İstanbul 2009.

نيكولا يورجا، "تاريخ الإمبراطرية العثمانية"، دار يديتبه للنشر"، إسطنبول (٢٠٠٩).

Osman Turan, "Türk Cihan Hâkimiyeti Mefkûresi Tarihi," Boğaziçi Yayınları, İstanbul 1996.

عثمـان توران، "تاريخ مفكـورة الحاكمية العالمية التركية"، دار يوغازيتشـي للنشر، إسطنبول (١٩٩٦).

Paul Wittek, "Devşirme ve Şeriat," Türkiye Günlüğü Dergisi, Sayı 58, 1999.

بول فيتيك، "الدوشرمه والشريعة"، مجلة يوميات تركيا، العدد ٥٨، (١٩٩٩).

Selahattin Tansel, "Osmanlı Kaynaklarına Göre Fatih Sultan Mehmed'in Siyasi ve Askeri Faaliyeti," TTK. Yayınları, Ankara 1999.

صلاح الدين تانسيل، "الأنشطة السياسية والعسكرية للسلطان محمد الفاتح وفق المصادر العثمانية"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٩٩).

Şehabettin Tekindağ, "Mahmut Paşa Maddesi," TDV. İslam Ansiklopedisi, İstanbul 1989.

شهاب الدين تكينداغ، "مادة محمود باشا"، وقف الديانة التركي، الموسوعة الإسلامية، إسطنبول (١٩٨٩).

Yılmaz Öztuna, 'Büyük Osmanlı Tarihi," Ötüken Neşriyat, İstanbul 1994.

يلمـاظ أوزتونـا، "التاريـخ العثماني الكبير"، دار أوتوكن للنشـر، إسـطنبول (١٩٩٤).